رحلات القوافل

يُعنى هذا الفصل برحلات القوافل، التي كانت قديماً وإلى عهد قريب، تعتمد بشكل رئيسي على الإبل، سواء داخل الجزيرة العربية أو خارجها. فإلى جانب الفوائد الجمة التي ظل العربي يجنيها من الإبل، مستفيداً من ألبانها ولحومها وجلودها وأوبارها، كانت الإبل وسيلته الوحيدة للتنقل والارتحال عبر الفيافي والقفار، كما استغلها في الزراعة والتجارة وطلب العلم والمعرفة والاكتشاف، وكسب الرزق والقوة والثراء والحرب وكافة شؤون حياته.

ومن ثم يعالج الفصل رحلات القوافل وأنواعها وأهدافها وكيفية إعدادها وتجهيزها، وأدبياتها، ووظائف وخبرات الرجال المرافقين لها، وما يتصل بالأعراف والعادات المتعلقة بالسفر والرحلات، وبعض الإلماحات إلى المناخ والتاريخ والجغرافيا خلال الحديث عن هذه الرحلات، وما تحمله القوافل من بضائع وسلع إلى مختلف الجهات والبلاد، وغير ذلك، عبر محورها الرئيسي وهو الأبل التي تعد العمود الفقري لهذه الرحلات.

ويمكن القول إن عرب الجزيرة العربية بصفة خاصة، من أكثر الأمم ولعاً بالتنقل والسفر والرحلات على ظهور الإبل وسيراً معها. فمنذ ما يقرب من سبعة آلاف سنة، انطلق العرب من قلب الجزيرة العربية وأطرافها في رحلات برية جماعية طويلة إلى بلدان الشرق الأدنى العربية القريبة وبلدان الشرق الأقصى، وركبوا البحار والسفن الشراعية في بعض مراحل رحلاتهم، كما عبروا الأنهار واجتازوا الممرات المائية بقصد التجارة وطلب الرزق. وكانوا يحملون في قوافلهم بعض أنواع التمور والجلود المدبوغة والسمن والإقط، وغير ذلك من منتجات الصحراء القليلة إلى أسواق مُدن وموانئ الأقطار

العربيـة كالعراق وبلاد الشـام (سوريا، والأردن وفلسطين)، وإلى مصر والسودان قبل حـفر قناة السـويس، وكذلك إلى موانـئ بلاد فـارس والهـند والـبنـغال والصين. ويجلبون معهم في رحلة العودة مختلـف بضائع ومنتـجات تلك البلاد كالقمح والأرز والحرير والقطن والبخور والتوابل والسجاد وكثير من المصنوعات اليدوية. وإضافة إلى نشاطهـم التجاري الملحوظ عبر قارتي آسيا وأفريقيا منذ أقدم العصور، فقد كانوا حلقة وصل حضاري وثقافي بين سكان الجزيرة العربية وشعوب القارات القديمة الثلاث.

وليـس خافياً مـا كان لقـريش في الجاهـليـة من تجـارة رائجـة ورحلات موسمية تجارية مشهورة إلـى بلاد الشام واليمن. منهـا رحلة جماعية كبيرة في الصيف إلى بـلاد الشام، ورحلة كبيرة أخرى في الشتاء إلى اليمن والبلاد المطلة على المحيط الهندي. وقد ورد ذكر هاتين الرحلتين الموسميتين في القرآن الكريم. قال تعالى ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ (قريش: ١-٢). وقد روي أن الرسـول الكريم علـيه السلام صحب عمه أبا طالب، في صباه، في قافلة لقريش إلى الشـام. كما قام قبيل البعثـة مع ميسرة غلام السيـدة خديجة $ برحـلة إلـى الشام، فـي تجارة لـها ضمن قافلة قريش، وكان عمره خمسة وعشرين عاماً. وقد ظلت قوافل قريش حتى بعد الإسلام تقوم بهاتين الرحلتين.

أما الرحلات الداخلية التي كان يقوم بهـا العرب فـي الجزيرة الـعربيـة عبر الصـحارى والفيـافي شمالاً وجـنوباً، وشرقاً وغرباً بين الخليج العربي والبحر الأحمر، فهي لم تنقطع لأنها كانت عماد حياتهم ومعيشتهم.

وقد كانت الأبل دائماً، قبل الإسلام وبعـده وحتى خمـسين عامـاً مضت، واسطة النقـل والسفر سواء للتجارة أو النقل أو طلب العـلم. فمما هو جدير بالذكر أن من العرب والمسلمين في القرنين الثامن والعاشر الهجريين من قام برحلات علمية واستكشافية عـرفها العالم وأشاد بها المؤرخون لشهرتها وفوائدها، وكانت الواسطة الرئيسية لهذه الرحـلات ظهور الأبل، كرحلة ابن جبير وابن بـطوطة، ثم رحلة ابن ماجد، أشهر رحالة عربي، ويقال إنه هو الذي رافق فاسكو دي جاما ودلَّهُ إلى الهند ورأس الرجاء الصـالح. وقد وضع بـعض هؤلاء الرحـالة كتبـاً وخرائط لا تزال متداولة بين الناس حتى اليوم، ولا شك أن جزءاً كبيراً من مراحل هذه الرحلات قد تم على ظهور الأبل.

ونظراً لما للأبل من دور مـهم في النقل والرحلات فقد أطلق عليها العرب اسم سفينة الصحراء. وظلت حركـة العربي ورحلاته مستمرة داخل الجـزيرة العربية وخارجها حتى حلت السيارات والناقلات الآلية محلها، فأصبحت رحلات القوافل نادرة تثير العجب، ثُمّ توقفت تماماً ولم يعد لها وجود الآن.

ولا شك أن العربي أحب الرحلات من قديم الزمن لتوافر وسيلتها الأساسية وهي الأبل، سفن الصحراء. وقد أفادته هذه الرحلات قـديماً وحديثاً في تنـمية شخصيته وإثبات رجولته والاعتماد على النفس ومواجهة المخاطر في بيئـة كانت محتـاجة لهذا اللون مـن الحياة الخشنة الصعبة. كما تحققت له المكاسب العديدة من التنقل والترحال. ومن جهة أخرى، فجَّرت هذه الرحلات في العربي ينابيع الأدب والشعر بما له فيها من حب وحنين وشوق ووصف، إذ يقال إن ثلثي الشعر العـربي الـقديم قـيل خـلال الرحـيل والاغـتـراب عـن الـوطـن والأهـل والأحباب. ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن العرب هم أول من ابتكر أدب الرحلات وتركوا تراثاً في هذا المجال. ومن ذلك التراث القديم استـلهم الأدباء والكتاب أدب الرحلات في العصر الحديث.

وخلاصة القول، إنه إذا كان الفينقيون والإغريق والرومان قد اشتهروا برحلات البحر في العصور الماضية، فإن الـعرب هم سـادة الرحلات فـي البر من غـير منـازع، فقـد كانـوا يعتـبرون الـسفر والرحلات مع القوافل متعة، إضافة إلى أن رحلات القوافـل والرحلات عموماً وسيلة للرزق والمعرفة والاكتشاف، قال أحد الشعراء في فوائد السفر:

إذا ضاقـت الدنيا عـليك ولـم تطق
فسافـر، ففي الأسفار خـمس فوائد
تـفرُّجُ هـمٍ، واكـتـسابُ مـعـيشـةٍ
وعلـمٌ، وأخلاقٌ، وصُـحبـةُ ماجـدِ

وقبل الشروع في تفاصيـل رحلات القوافـل ينبغي إعطـاء تعريف للقـافلة حسب مفـهوم المحدثين والقدماء لـهذه الكلمة الجامعة. فمـجموعة الإبل يقال لها قافله وحمله ورِعِيّه؛ فإذا كان على الإبل أحمال سميت حمله، وإذا كانت من دون أحمال سميت رعيـه. والبادية تطلـق على الجمـاميل رْحيـليّه، نسبـة لنزولهم وارتحالهم يومياً، والناقة عندهم تسمى رحـول وهي التي يحمل علـيها وتدربت على الأحمال.

وهناك من يـسمي مجموعـة الإبل المقطير أو المقطار وهي التي تنقل عليها الفاكهة أو الحبوب أو السمن أو العسل

من الجبال إلى المدن، وتكون لشخص واحد يستأجرها أو لأكثر من شخص، وبربط أول هذه الإبل من خشمه، ويكون قائدها راكباً على حمار في أولها، ويكون خلفها شخص آخر راكباً على حمار. و يكون عدد هذه الإبل من ١٠-٢٠ جملاً، وهذه الطريقة لا تستعمل في نجد وإنما تستعمل في المنطقة الغربية بين الطائف ومكة وجدة.

ومن أمثلة ذلك قوافل القرى والمناطق الزراعية في جبال الحجاز للمدن الرئيسية كمكة وجدة والطائف وأبها وبيشة وخميس مشيط، وفي الحجاز تسمى المقطار أو المقطير وتتراوح بين ثلاثة إلى عشرين جملاً تحمل المنتجات الزراعية من فواكه وخضراوات وحبوب أو حطب أو نحوه يكون معها شخص واحد أو عدة أشخاص تحمل منتجات هذه القرى للمدن وتعود محملة بما قد يحتاج إليه أهلها من حاجات.

ويرى آخرون أن القافلة هي الإبل التي تكون محملة في رحلة تجارية، أما إذا كانت من الإناث وحيرانها وبعض الفحول فهي رعية أو هجمة أو ذود، وإذا كانت متنقلة من منطقة إلى أخرى فهي إبل حائلة (حول) أو (حوله) أي متحولون من منطقة إلى أخرى بقصد الرعي، هذا إذا كانت تمشي باتجاه واحد ومعها من يتبعها، وفي ما مضى كان أهل البادية يحمّلون الذكور (الزمل) من

المقطار

إبلهم بمتاعهم عند الانتقال فكانت هذه الإبل تسمى (المظهور)، والقـافلة وقف على التجارية منها.

أما المحدثون فيرون أن كـلمة قافلة تطلق على مجموعة كبيرة من الإبل في حالة سفرها بحمولة أو بغير حمولة إذا كانت مقطورة بعضها وراء بـعض بعيراً بعيراً أو بعيرين بعيرين، فإذا سارت الإبل بغير نظـام وترتيب وبلا أحمال فيطلـق عليها هجمه أو بوش. كما أن هناك من يطلق اسـم قافلة على الإبل فقـط دون مرافقيها من الرجال. ولكن بعض الناس يرون أن القافلة تطلق على الإبل والرجال معاً، وأنه لا يطلق على مجموعة الإبل قافلة إلا إذا كـانت رعية أو أكثر (عدد

حولة

إبل الـرعية مـن ٨١ إلى ٩١ بعـيراً). وتسمى مجموعة الإبل هذه قافلة، سواء كانت مغـادرة إلى هدفها أم عائدة إلى نقطة انطلاقها.

وقد جاء فـي اللسان لابن مـنظور «القـفول. . الرجوع مـن السفر وقـيل القفول رجوع الجند من الغزو. قال أبو

هجمة أو بوش

منصـور: سميت القافـلة قافلة تـفاؤلاً بقفولها عن سفرها الذي ابتدأته، قال: وظن ابن قتيبة أن عوام الـناس يغلطون في تسميتهم الناهضين في سـفر أنشأوه قافلة، وأنها لا تسمى قافلة إلا منصرفة إلى وطنها، وهذا غلط. وما زالت العرب تسمي الناهضين في ابتداء الأسفار قافلة تفاؤلاً بأن ييسـر الله لها القفول، وهو شائع في كلام فصحائهم إلى اليوم».

وقد شاعت كلمة قافلة حيث صارت تطلق على صف (رتـل) السيارات بعد ظهورها، فيقال قافلة من السيارات، كما أصبحت تطلـق على الناقلات وخاصة ناقلات الزيت الكبيرة. ومن جهة أخرى أخذت كلمة القافلة في ذهن الناس معنى الجد في السير والنجـاح المتواصل فقيل في المثل «الكلاب تنبح والقافلة تسير».

تأمين إبل القافلة

يحرص صـاحب القافلـة أو رئيس القافلة على تأمين الجمال التي تشترك في الرحلة قبل موعدها بوقت كاف (حوالي ٧-١٥ يوماً)، تفادياً للتـأخر عن موعد بدء الرحلة الذي يكون مقرراً سلفاً باليوم والتاريخ، خصوصاً إذا كانت الرحلة لنقل البضائع من منطقة إلى أخرى أو من بلاد إلى أخرى. وقد تـكون هناك اتفاقيات وشروط مـلزمة بين صـاحب البضـاعة والمتعهد بـنقلها وتوصيلـها خلال وقت محدد. كما أن توقيت بدء الرحلة يكون

قوافل نقل البضائع

مهماً جداً إذا كانت الرحلة خاصة بالحج. وفي معظم الأحيان، تكون جمال القافلة مملوكة لشخص واحد، أو لعائلة، أو لمجموعة من الشركاء يمثلهم أحدهم رئيساً للقافلة. أو قد يُنتدب لرئاسة أو قيادة القافلة شخص غير شريك لقاء أجر معلوم متفق عليه، وتكون له خبرة وتجربة ودراية تامة بمهنة الجِمالة ورئاسة القوافل.

فإذا لم تكن إبل القافلة كافية من ناحية العدد لإنجاز مهمة نقل البضاعة، فلا بد من تأمين عدد آخر من الإبل سواء بالشراء، أو بالاستئجار ممن يملكون جِمالاً برسم التأجير. ولكن مالك القافلة أو رئيسها يفضل عادة شراء إبل أخرى لأسباب تتعلق بزيادة الربح، أو بحرية التصرف في الجمال على نحو يُريحه، وبلا شروط من أي نوع كانت. ويتم تأمين إبل النقل والسفر والرحلات من مصدرين رئيسيين هما أسواق الأبل، والمشوِّم أو الشريطي، وهو التاجر الذي يشتري الإبل من البادية ويبيعها في المدن والقرى.

والشراء من أسواق الأبل أفضل للمشتري من ناحية الأسعار والاختيار وفرصة الفحص والانتقاء. وقد عرفت في نجد مثلاً، منذ عدة عقود ماضية، أسواق شهيرة وكبيرة للإبل في كثير من المدن، كحائل والرياض وبريدة وشقراء. وكان معظم سكان هذه المدن يتاجرون بالإبل، وكان قسم منهم يشتغل في مهنة الجمالة. وكان أهل الإبل في البادية يأتون

سوق حديث للإبل

بإبلهم إلى أسواق الإبـل في هذه المدن لبيعها ومـن ثم شراء ما يحتاجون إليه من الأطعمة والملابس وغير ذلك. ونظراً لحاجتهم وفقرهم لم يكن لديهم الخيار أو السعة من الوقت للانتظار والمساومة الطويلة، مما يعطي الفرص الذهبية للتجار في شراء مـا يريدون من الإبـل لكافة الأغراض؛ كالذبح أو الـسني أو النقل أو الاقتناء لأجل الحصول على الألـبان ولأغراض أخرى، بأسعار تُعدُّ رخيصة بالنسبة لأسعارها الحقيقية. وهنا تكون الفرصة أيضـاً مواتية لمن يريدون الإبل الـقويـة الملائـمة والـلازمة لـرحلات القوافل.

أما المصدر الآخر لتأمين إبل القوافل، وهو مصدر أقل أهمية من أسواق الإبل، فهو المشوم الذي ينشد الربح الكثير كغيره ممن يمتهنـون البيع والشراء. ففي فصـل الصيف يتجه أهل البادية بإبلهم إلى موارد المياه القريبة من المراعي الجيدة، فيقطنون مع إبلهم حول الماء وفي المراعي مدة أشهر الصيف، فيأتـي المشوِّم إلى هذه المواقع التي يعرف كل منها بالمقطان ليشتري الإبل من القاطنين فيها من أهـل البادية الذين يسمون القطين، وفيهم يقول الشاعر:

خف القطـين فراحوا عنك أو بكروا
وأعجـلتـهم نوى فـي صرفهـا غِيَـرُ

ويشتري المشوِّم الإبل من هؤلاء البدو بطريقة عشوائية ومن دون انتقاء، لا يفرق بين صغـير وكبير أو سـمين وهزيل أو سليـم ومعيب، ثـم يسوقهـا هو ومن يعاونه، ويحضرها إلى المدن ويـعرضها للبيـع سواء في الأسواق أو خارجهـا. وفي حين تضم هـذه الجلوبه من الإبل بعض الجمـال القوية السليـمة الصالحة للسفر ورحلات النقل، فإنها تضم الإبل الكبـيرة في السـن والتي لا تخلـو من عيوب، فيكون منها ما يصلح للجمالة، وهي الجمال المخصية ويسمونها الزمل، ومنها الإناث (الحائل غيـر المعشر) التي تصلح أيضاً للـجمالة أو للاقتناء حيث تسمى مَقْنوي، ومنها ما يشتريها الفلاح ليسني عليها، ومنها ما يـستعمل لجلب الحطب أو النقل الخفيف بين القرى والمدن القريبة، ومنها ما يشتريها الجزار للذبح والاستهلاك. ومن هنا يتضح أن تأمين جمال الرحلات من المشوِّم يأتي في المرتبة الثانية بعد أسواق الإبل، ولا يُلجأ إليه إلا في حالات الاضطرار أو الحاجة الماسة الملحَّة لتأمين الجمال.

وعند اختـيار جمال القافلـة للنقل والرحلات الطويلة، هناك مواصفات لا بد من مراعاتها؛ منها أن تكون الإبل، سواء الجمال أو النياق، قوية ممتلئة لحماً

وشحماً، وهذه تتوافر في أيام الصيف، ويستحسن أن تكون معتادة النقل والسفر وهادئة ومطيعة (مـعسوفه). وأن تكون متوسطة السن من رباع إلى سدس، وأن تكـون مخصيـة إذا كانت ذكوراً، لأن الجمال الفحول غـير المخصية تهيج في موسم الضراب (الشتاء) وتلقي بأحمالها التي عليها وتنـطلق باحثة عن الإناث. وهذا يـسبب المتـاعب للقـافلة ويـخل بمسيرتها بالإضافة إلى خطرها على رجال القافلة عنـد هياجها. وفي هذا السياق يجب أن تكون الإناث المشتركة في القافلة حـائلـة لا تحمـل أجنـة في بـطونـها (بكرات)، أو تكون خلْفات لا تصاحبها حيرانها حتى تنتظم في السير مع القافلة، ولا تبقى مشغولة عليها. وينبغي أن تكون الإبل سـليـمة وخـالية مـن الأمراض والعيوب، كالشاذوب أو الرقب أو الجرب أو الجروح أو الدبر أو الحفا أو غير ذلك مما يؤثر عليها خلال الرحلة، ويجـعلها غير قادرة عـلى حمل الأحمال الثقـيلة والرحلة الطويلة.

وأهم ما يتنبّه له ذوو الخبرة في اختيار الإبل هو امتحان قـدرة الجمل أو الناقة على حمل الأحمال الثـقيلة وخلوه من قلب العصب الذي يلاحظ على عراقيب الإبل وهي باركة، فإذا كان العصب رخوا لينـاً قيل إن في الجمـل أو الناقة قلـب عصب، وهو عيب يظهر أثره في الحمل الثقيل والسير الطويل. وإذا كانت جمال القافلة مستأجرة كلها أو بعضها فـيجب قبل ضمـها للقافلـة تطبيق المواصفـات السابقة عليها أيضاً، لأن الجمل المستأجر المجروب قد يُعدي جمال القافلة السليمة ويسبب كـارثة لمالك أو مالكي الإبل. كما أن البعير المريض أو الهزيل قد ينفق في الطريق أو يكون سبباً في إعاقة القافلة عن مواصلة سـيرها، وقد يكون ذبحه وتوزيع حمولته على بعض الجمال حلاً أخيراً يلجأ إليه.

وتفـضل للقـوافل الإبل المجاهـيم والصيعرية المستخدمة للركوب على غيرها من الإبل، لـقوتها وتحمـلها للأحمـال الثـقيلة والـسفر والـرحلات البعـيدة، وكذلك الإبل الجودية وما يماثلها من الإبل القادرة على السير في الرمال وفي المسالك الصعبة.

الاستعداد لرحلة القافلة

على الرغم من أن هناك أنواعاً عدة لرحلات القوافل، سيأتي الحديث عنها لاحقاً، إلا أن أي نوع من أنواع القوافل يحتاج إلى استعدادات أساسية تبدأ قبل الرحلة بـأيام وربما بأسابيـع. ويحرص

رئيس القافلة بشكل خاص على نجاح الرحلة وتقليل مصاعبها إلى أدنى حد ممكن. وبقدر ما يكون الاستعداد جيداً تصبح الرحلة ميسرة ومريحة. وتكون الاستعدادات والتجهيزات الأساسية للرحلة غالباً مسؤولية رئيس الرحلة قبل أي شخص آخر. غير أن هناك استعدادات أخرى يقوم بها كل من يشترك في الرحلة وتخصه شخصياً، أو تخص بعض رفقاء الرحلة والسفر؛ فمن أهم الاستعدادات والإجراءات التي يقوم بها رئيس القافلة أو الرحلة قبل البدء بها إشرافه بنفسه على تأمين إبل القافلة، وشراء أو استئجار ما يلزم منها للرحلة، والاطمئنان على أنها سليمة وجاهزة وقادرة على الاشتراك في الرحلة، ودفع أجرة الإبل المستأجرة لأصحابها فور تسلُّمها منهم. وقد يُحرر عقد إيجار واستئجار بينه وبينهم إن كانوا من البادية أو غرباء، وقد لا يحتاج الأمر لمثل هذا العقد إن كانوا من معارفه أو أهل بلدته وتوافرت الثقة بين الطرفين.

ويعهد رئيس القافلة قبل الرحلة بيومين أو ثلاثة إلى شخص أو أشخاص للعناية بالإبل من حيث مرعاها وسقياها جيداً، والتحقق من خلوها من الأمراض أو العيوب حتى اللحظة التي تبدأ فيها عملية التحميل. كما يعهد الرئيس إلى شخص أو أشخاص بتأمين وتجهيز كل متطلبات الرحلة اللازمة سواء للرئيس والمرافقين أو للإبل. وفي مقدمة ذلك تأمين مؤونة الرحلة من القهوة والقرنفل والطحين والجريش والأرز والسكر وبعض الأطعمة التي لا تفسد، كالكليجا والإقط، والشعثاء، وهي الإقط المجروش والمعبوك بالتمر، وأحياناً القديد المملح مما يلزم للطبخ. وكذلك يجري تأمين القدور والأباريق وأدوات صنع القهوة العربية والشاهي، إضافة إلى بعض الخيام والفرش الخفيفة، وما يلزم لتجهيز ذلول رئيس القافلة، مثل الشداد والخُرج والجاعد والنطع والميركة، وبعضها أشياء قيمة مصنوعة من الجلد. كما يتم تأمين وتجهيز الحبال والعقل والملاميظ أو الأشظه والقلوات، واحدتها قلوه، والقِرب لحمل الماء، وكذلك بعض الأواني للشرب والوضوء، ثم الدلاء والأرشية والأرسان، وبعض الأدوية المعروفة من الأعشاب وغيرها لمعالجة المسافرين خلال الرحلة. وربما تم تأمين شيء قليل من العلف كالشعير أو التمر لإطعام بعض الإبل التي يظهر عليها الهزال كإجراء احتياطي. والحقيقة أن هذا الشخص أو الأشخاص المكلفين من رئيس القافلة بمثل

هذه المهمات هم بمثابة أمين المستودع في الحضر، كما أنهم مسؤولون عن حفظ الأسلحة لاستخدامها عندما يستدعي الأمر استخدام السلاح؛ فرئيس القافلة مسئول عن تأمين الأسلحة لحماية القافلة من اللصوص (الحنشل) وقطاع الطرق، فتحمل القافلة عدداً من السُيوف والخناجر والشباري والبنادق والذخيرة بعد أن توافرت في ذلك الوقت، فإذا هوجمت القافلة تم فوراً توزيع الأسلحة على الشجعان والمهرة في استخدام الأسلحة من مرافقي القافلة للدفاع عنها وصد العدوان، وقد تكون معهم أسلحتهم على أتم استعداد.

ويختار رئيس القافلة بعض الرعاة من البدو (الأعراب) من ذوي الخبرة في رعاية الإبل وسقيها وخدمتها وعلاجها وحراستها، وممن لديهم خبرة في معرفة مواقع المراعي الجيدة والآبار والمياه. كما يختار رئيس القافلة شخصاً صغيراً أو أشخاصاً لمساعدة الراعي أو الرعاة، وهؤلاء يسمون ملاحيق، ويقال للواحد منهم ملحاق. وهناك أيضاً شخص أو أشخاص يختارهم الرئيس لخدمة القافلة والطبخ وإعداد القهوة والشاهي وصبهما وتقديمهما بعد الطعام للرئيس والمرافقين والمسافرين. كما يُحدَّدُ شخصٌ يكون مكلفاً أو موكلاً بإيقاد النار وعمل الأقراص من البُر، وتسخينها إن بردت. ويتولى أمر الفُرش عند النزول ورفعها عند الرحيل، وغير ذلك من الأمور التي يقوم بها بعض المخصصين للخدمة من الكبار أو الصبيان في الحضر والبادية. وعلى الجملة فإن رئيس القافلة يوزع المهمات على جميع من في القافلة بحيث يتحمل كل شخص مسؤوليته ويؤديها بدقة وإخلاص؛ فهناك من يتولى الحراسة ويسمى الناطور، وهناك من يقوم بالرعي، أو الحماية، وغيره للخدمة وغير ذلك من المهمات والأعمال، وتكون مهامهم معروفة قبل بداية الرحلة. بعد ذلك يُحدد الرئيس موعد السفر وبدء الرحلة، وينتدب من ينبه جميع المسافرين ومنهم أصحاب الخُبر، وهم مجموعات لها إبل في الرحلة، بموعد الرحلة ووقت التحميل، كما يشرف على تحميل القافلة بنفسه.

أما الاستعدادات الشخصية لأفراد القافلة فلكل شخص طريقته الخاصة في الاستعداد للرحلة. وعادة يحضر كل شخص ملابس نظيفة يضعها في كيس أو (بقشه) ليغير ملابسه في الطريق إن اتسخت أو عندما يصل إلى المدينة أو المكان الذي تقصده القافلة. كما يودع

أهلـه وأولاده وأصدقـاءه. ونظـراً لأن الرحلات خطرة وطويلة المدة، فهناك من يكتب وصيته وما له وما عليه للناس من دين. وقد يحمل معه أمانات أو رسائل للجهة الـتي تقصدها القافـلة، كما قد يكلفه بعض الناس بشراء حاجـات لهم أو هدايا. وقد تقوم زوجته أو أهله بتجهيز ما يلزم له من أدوات خلال الرحلة.

أما رئـيس الـقافـلة فـإضافة إلـى استعداداته الشخصية، فإنه إن كان يكتب ويقرأ، يحرص على أن يحمل معه بين أغراضه سـجلاً فيه أسمـاء الأشخاص المشاركين في الرحلة وعدد الإبل المملوكة والمستأجـرة، ومواعيد الرحلة والإقامـة وغير ذلك مما يتصل بالقافلة وشؤونها. ويكون هذا السجـل بمثابة مفكرة تفيده في رحلته، وربما كلف أحد مرافقيه بالقيام بهذه المهمـة في وقت فراغه. وأكثر ما يكون هذا السجل ضرورياً في رحلات الحج ونقل المسافرين.

إدارة شؤون القافلة وحمايتها

لا شك أن دور رئيس القافلة، مهما كان نوعها، دور عظيم ومهم جداً، يشبه دور الأمير أو الحاكم أو القائد إلى حـد بعيد؛ فلا بد أن تتوافر في شخصه صفات الأمير أو القائد المسؤول، فيكون شجاعاً كريماً عاقلاً مهـيباً قوياً ذكياً فطناً. كـما يجب أن يكون بعيد النظر واسع الصدر وشديد الدهاء عنـد اللزوم، وأن يكون قدوة حسنة لكل من هو تحت إمرته سواء في أخلاقه أم تصرفـاته. فقيادة القافلة وتدبر أمرهـا ليس أمراً سهلاً، فالقـائد مسؤول عن أرواح الناس الذين معه وعن سلامتهم، إلى جانب مسؤوليته عن الإبل وأحمالـها وما فيـها من أرزاق وأموال ومتاع، خصوصاً إذا كانت هناك أخطار تهدد سلامة القـافلة. وحسبنا أن نذكر دليلاً مهماً على مكانة ولياقة قائد القافلة وهو أن أشهر القوافل في التاريخ العربي كان يقودها أبو سفيان أحد سادة قريش، ولا أحد يجهل من هو أبو سفيان حسباً ومكانة بين قومه. فقافلة قريش العائدة من الشام التي عرض لها الرسول الكريم مع أصـحابه ونجت، كـان يقودها أبـو سفيان بن حرب، وعلى أثر هذا التعرض للـقافلـة وقعت مـعركة بـدر كما هو معروف. وليس بالضرورة أن يكون رئيس القافلة أو قائدها كأبي سفيان تماماً ولكننا ضربنا مـثلاً فقط، إذ القصد أن يـكون رئيس الـقافلة أو قائدهـا مِمَن يتحمـل مسؤولية كبيرة.

ورئيس القافلة أو قائدها، سواء أكان هو صاحبها أم كان منتدباً لرئاستها، يكون

عادة رجلاً جليلاً مهيباً أو كهلاً معروفاً بحسن الرأي والتدبير، وقد يكون شاباً قوياً معروفاً باتزان شخصيته وحسن إدارته لما يتولاه من شؤون.

ومن الأمور المهمة أو الشؤون الأساسية التي يتولاها رئيس القافلة أو يحرص على الإشراف على تنفيذها أو تحمل مسؤوليتها بنفسه، منذ بدء مسيرة القافلة حتى عودتها إلى المكان الذي انطلقت منه، الاطمئنان الدائم على سلامة الرجال والجمال. فهو أحياناً يتقدم القافلة على ذلوله وأحياناً يسير خلفها، كما يسير إلى جانبها ويسأل المسافرين عن أحوالهم ويطمئن عليهم دون أن يدخل مع المرافقين في حديث طويل. ولما كانت القافلة تتعرض للأخطار واللصوص (الحنشل)، وأحياناً السلب والنهب من قبل القبائل التي تمر بها، فهو دائماً متيقظ لحماية القافلة بكل الوسائل الممكنة. فاللصوص والحنشل الذين ليس لهم أي مرجع أو مسؤول عن تصرفاتهم العدوانية، ليس لهم إلا المجابهة مهما كانت النتيجة. أما قبائل البدو الذين لا يمكن مقاومتهم بسهولة، فإن رئيس القافلة يحتاط بأن يعتمد على معرّف أو دليل معروف ينتمي إلى القبيلة المقبلين على مضاربها أو على حماها ويسمى رِفَق بحيث يعلن الدليل أو الحامي لمن يتعرضون للقافلة من قبيلته بأن القافلة ومن فيها في وجهه وفي جيرته أو في حمى قبيلته، فيعود الغزاة غالباً أدراجهم ولا يتعرضون للقافلة بسوء. وقد يكون هناك اتفاق على دفع شيء معلوم لشيخ القبيلة ورجاله، غير الأجرة أو المكافأة التي يتقاضاها الدليل. ويتبع الرئيس هذا الأسلوب لحماية القافلة في كل مرحلة من المراحل التي تقطعها، حتى يصل بها إلى وجهتها بسلام.

ورئيس القافلة هو أميرها المطلق، ليس لأحد أن يعارضه أو يخرج على أمره، فهو الذي يدبر كل أمر خاص بالقافلة وعلى الجميع السمع والطاعة. فهو الذي يؤمهم في الصلاة، أو ربما اختار من ينوب عنه إن كان أعلم منه وأفقه، وهو الذي يفصل في المنازعات أو الخلافات بين مرافقي القافلة، فهو بمثابة القاضي. وهو أيضاً الذي يحدد زمان ومكان استراحة القافلة، آخذاً في الاعتبار راحة الرجال والإبل بعد كل مسافة أو مرحلة. ويتصرف الرئيس وفق ما يحقق مصلحة القافلة ومن فيها، محاولاً أن يكسب ثقة الجميع ورضاهم واحترامهم. فهو يلاطفهم ولا يبخل عليهم بشيء، بل إنه أحياناً يردف أحدهم

على ذلوله، أو يترك له الذلول ليركبها ويمشي هو إن لم تكن الإبل قادرة على حمل المزيد من الأشخاص، إشعاراً لمن معه بالعدل والمساواة. ورئيس القافلة مسؤول عن سلامة القافلة في حالتي ذهابها وعودتها، كما أنه مسؤول عن تأمين الإعاشة والمسكن للمرافقين خلال الرحلة وعند الوصول، وطيلة مدة الإقامة. كما أنه مسؤول عن رعي الإبل وسقياها وإيجاد المأوى لها بعد الوصول، وذلك بتكليف عدد من رجاله للقيام بهذه المهمات المتفق عليها سلفاً قبل الرحيل.

على أن رئيس القافلة لا يتدخل في الشؤون الخاصة لأفراد القافلة خلال السفر وبعد الوصول. بل يترك لهم حرية السمر والصيد والحداء، كما يترك لهم بعد الوصول حرية التجول في المدينة وشراء ما يرغبون من لوازم وهدايا وبضائع، خصوصاً إذا كانت رحلة القافلة لغرض التجارة.

وهو المسؤول أيضاً عن الخُبَر وهي الجماعات التي تطلب مرافقة القافلة، سواء من بداية الرحلة أم أثناء الطريق، وكل خبرة من هذه الخبر في العادة مستقلة بأدواتها ومعداتها، وإنما تكون منازلها قريبة من بعضها، وكل خبرة تصرف على نفسها. لكن إذا جاء شخص وأراد مرافقة الحملة، فيؤمَّن له الغذاء أسوة بالمرافقين على سبيل الكرم من غير مقابل لقاء قيامه بمساعدتهم.

أنواع القوافل

اهتم عرب الجزيرة العربية القدماء بتسيير القوافل، ووضعوا أنظمة لها كما حددوا أنواعها. وكانت أهم القوافل عندهم قافلة التجارة، وقافلة نقل البضائع في الذهاب والإياب، وهو ما يسمى في المصطلح الحديث التصدير والاستيراد. غير أن هناك نوعاً جديداً من أنواع القوافل عرف بعد الإسلام، سمَّوه قوافل الحج حيث لم تعد زيارة مكة قصراً على سكان الجزيرة العربية، بل نظراً لانتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية أصبح المسلمون يتوافدون على مكة المكرمة لتأدية الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج. ومنذ ظهور الإسلام وقوافل الحج تؤم مكة المكرمة من جميع الأقطار في كل عام. وتبدأ هذه القوافل بالمسير إلى مكة المكرمة قبل فترة من موسم الحج لتصل إليها في الوقت المناسب للوقوف بعرفة يوم التاسع من ذي الحجة وهو يوم الحج الأكبر. كما أن هناك قوافل تأتي إلى مكة تحمل من يريدون العمرة والزيارة، وبعد أن ظهرت وانتشرت وسائل النقل

الحديثة قلّت أو انعدمت قوافل الحج والسفر على ظهور الإبل.

ويمكن تقسيم القوافل بشكل عام إلى عدة أنواع، خاصة القوافل التي اشتهرت باسم قوافل العقيلات.

وعلى ذكر العقيلات، فهناك آراء عديدة عنهم وعن قوافلهم وحول تسميتهم بهذا الاسم الذي اشتهروا به. فهناك من يقول إن العقيلات ينتسبون إلى بني عقيل وهم قبيلة كانت تعمر البحرين (الإحساء) وما بين العراق والحجاز أي جميع أطراف نجد الشمالية الشرقية. وهناك من يرى أن العقيلات امتهنوا رحلات القوافل منذ سبعة قرون نظراً لأنهم أهل إبل وخيل وتجارة. ويرى آخرون أن العقيلات ليسوا قبيلة ولكنها رابطة أو هيئة امتهنت الرحلات والتجارة، فكل من يعمل في هذا المجال يُدعى عقيليْ. ويقول الشيخ سليمان بن ناصر الوشمي، أحد العقيلات «إن العقيلات تسمية أطلقت على النجديين الذين سكنوا شمال العراق حيث استعان بهم العثمانيون ضد البادية واستخدموهم كقوة عسكرية، وكان شعار الدولة العثمانية الطربوش وشعار العقيلات الغترة والعقال ومن العقال جاءتهم التسمية» (السويداء ١٤١٦: ٢٠).

وعلى أي حال فالعقيلات فئات متعددة منهم العقيلات أهل القوافل من القصيم. وكانت لهم قوة وسطوة واتصال ومعرفة بحكام الدول والإمارات في نجد وخارج الجزيرة العربية، قبل تأسيس المملكة العربية السعودية على يد الملك عبدالعزيز. وعقيلات الجبل، والمقصود بالجبل منطقة حائل حيث كانوا هم وعقيلات القصيم يمتهنون النقل والتجارة وينظمون رحلات القوافل بمختلف أنواعها، ولا سيما إلى العراق والشام، إضافة إلى رحلاتهم الداخلية للتموين ونقل الحجاج. وقد قويت شوكة عقيلات الجبل في عهد آل رشيد الذين كانت لهم إمارة الحج العراقي في وقت من الأوقات. وهناك من يسمون أنفسهم بالعقيلات من سائر أنحاء الجزيرة العربية لأنهم يرون أن تسمية عقيلي ليست حكراً على أهل القصيم وأهل حائل. ولكن بين العقيلات عموماً نوعاً من التعارف والتعاون لتحقيق مصالحهم المشتركة في مجال رحلات القوافل الداخلية والخارجية. ويتحدث إبراهيم المسلم في كتابه العقيلات عن رحلات قوافل العقيلات وتكوينها وسيرها وإعداد جمالها ورجالها المرافقين فيذكر أن أهل نجد بصفة عامة وأهل القصيم والزلفي

وشقراء بصفة خاصة، أهل تجارة، وأصحاب قوافل، وقد هاجر الكثير منهم إلى الأقطار العربية المجاورة بحثاً عن الرزق، وبعد الهدوء النسبي الذي ساد الجزيرة العربية والأقطار المجاورة خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، واستقرار الكثير من أهل نجد تجاراً في الكويت والبحرين والزبير والبصرة وبغداد والشام ومصر والهند، وعودة الكثير من العقيلات الذين عملوا مع قوافل التجارة وقوافل الحجاج والمحاربين في الجيوش العثمانية للاستقرار في مدن القصيم بعد تعميرها، فتحوا المحلات التجارية وكانوا يمثلون التجار في تلك المدن. واستمر العقيلات يقومون بتجارة الإبل والخيول التي يشترونها من أسواق بريدة وعنيزة، ومن ثم يقومون بتسويقها في بغداد والشام ومصر، والعودة بحمولات من المواد الغذائية والأقمشة والملبوسات ومنتجات الصناعة والزراعة، لبيعها في الأسواق بالجزيرة العربية.

وقد عرف المعاصرون من العقيلات تكوينات رحلات الأوائل منهم، وشرحوا كيفية خروج القوافل من القصيم، إذ كانت القافلة تخرج من القصيم بنحو ٣٠٠-٤٠٠ شراع، وحرس للقافلة يتكون من ٢٠٠-٤٠٠ رجل مع الرفق والدلِّيلة وأمير القافلة وحرسه وحاشيته وعدد من رعايا الإبل تصل إلى ما بين ٢٠٠-٣٠٠ رعية، والرعية الواحدة تعدادها ٨١-٩١ رأساً من الإبل. والحقيقة أن الرعية هي مجموعة كبيرة من الإبل وليست محددة بين ٨١ و ٩١ رأساً فقد تقل أو تزيد، وإنما تكون مجموعة واحدة. وعدد الخيول ما بين ١٠٠-٢٠٠ رأس، وعدد من الرعيان والملاحيق والخُويا يصل عددهم إلى ما بين ٤٠٠-٦٠٠ رجل. وإذا نظرنا إلى هذا العدد نجد أن أفراد القافلة مجتمعة يصلون إلى ما بين ٢٠٠٠-٣٠٠٠ رجل بما فيهم التجار وأبناؤهم وأقرباؤهم. وقد يرافق القافلة عدد من التجار الذين لا يملكون إلا القليل من رؤوس الإبل أو الخيل. ثم بدأت أعداد الإبل في القوافل تنخفض بظهور السفن التجارية، ووسائل النقل الأخرى مثل السيارات والطائرات فانحسرت تبعاً لذلك القوافل وعدد أفراد القافلة.

ويتكون أفراد القافلة الواحدة من الأمير، والإمام، والخطيب، لتبصيرهم بأمور دينهم، وأداء فروض الصلاة، إضافة إلى طباخ وسفرجي وقهوجي ومساعدين للطباخ والقهوجي ومساعدين لنصب

الخيام الشرع ودلِّيلة لمعرفتهم بالدروب ورفق من القبائل التي يمرون بمواطنهم وحراس ومعدية (١٤٠٥: ٥٩-٦٠).

ويشتري التجار الإبل عادة من أسواق بريدة وعنيزة بالقصيم، ولكل تاجر حوش كبير يدخل فيه ما يشتريه من الإبل والخيول. ثم يسم التاجر إبله بوسم أو علامة متعارف عليها لدى العقيلات والقبائل العربية.

ويشتري التاجر أيضاً الخيام حسب قدرته المادية وعدد ما معه من الرجال، كما يشتري معدات الشرع من الأغطية والفرش والأثاث ومعدات الطهي والمواد الغذائية التي تلزم خلال الرحلة. ويحرص على تأمين القرب (الصملان) للماء، وأحواض تصنع من الجلد والخشب مع محاله ومقام ودلو وحبال لسقيا الإبل على موارد المياه. كما يشتري أيضاً ما يلزم القافلة من حوائج تُحمل على ظهور جمال الثايه التي تخصص لحمل الشراع والأمتعة والمواد الغذائية والمياه وغيرها. ويتوقف عدد الإبل على ما مع التاجر من هذه المواد. كما يشتري أشدة مميزة توضع على الركائب الخاصة بالتاجر ومن يرافقه من أفراد عائلته وشركائه. ثم يستأجر الطهاة والقهوجي والمساعدين، والأشكي وهو المسؤول عن الثايه ومجموعة من الرعيان يحدد عددهم بعدد الرعايا التي يمتلكها. ويكون لكل رعية راعٍ، أما الملحاق فيكون مسؤولاً عن تجميع الإبل إذا تفرقت في المراعي حتى تظل قريبة. وإذا أراد الراعي تجميع الإبل يصيح بصوت عالٍ مردداً مشياعه للإبل لتتجمع حول قَعدتها. والإبل تعرف صوت الراعي، فعندما يشايع لها تتجمع حوله.

ولا بد أن يكون شراع الأمير مميزاً عن الشُرع الأخرى، فيكون أكبر منها. وقد يكون للأمير شراعان أو ثلاثة، فهو واجهة القافلة وكبيرها، ويجتمع في شراعه كبار التجار أثناء إقامتهم على موارد المياه، ويستقبل في شراعه رؤساء القبائل والضيوف. ويدفع التاجر لرئيس القافلة أو قائدها مبلغاً من المال يحدد بالاتفاق فيما بينهم، مقابل إمارته للقافلة، وتؤخذ على الإبل والخيل أجور للصرف منها على حراس القوافل ولدفع خاوات ولإكرام الضيوف، ومساعدة المحتاجين ممن يرافقون الرحلة من التجار الصغار أو من المعديه الذين يعرفون الطرق إلى أسواق الشام وفلسطين ومصر والعراق، وأجور الدليِّلة والرفق، ورسوم الإبل في تعديتها على الكباري والجسور ونقلها على المعديات عبر قناة السويس.

وبعد هذه الاستعدادات والتجهيزات تخرج الإبل إلى المراعي مع الرعيان والملاحيق، وكلما اشترى التاجر شيئاً من الإبل أدخلها إلى حوشه، ووضع عليها علامته أي وسمه، فيأتي الرعيان ليأخذوها إلى حيث بقية الإبل في المراعي. ثم يُضرب موعدٌ للتجمع على أحد الأمواه القريبة من القصيم، كالطرفية مثلاً إذا كانوا يقصدون العراق، أو قصيبا للقاصدين إلى الشام وفلسطين ومصر. وفي المكان المحدد تجتمع القافلة وتبدأ مسيرتها إلى أهدافها. يقول أحد الشعراء مصوراً رحيل إحدى القوافل:

لى سار ركب عقيل جينا نودّع
واعزتا للحال من يوم يمشون
ياقلب لا تبكي ترى النوح يسمع
وتقول الاعدا وش بهم يوم يبكون
هذا مكان الناس والوسم يطلع
وهذا مكان البل والقوم يشرون
مسيرهم للعز والجاه يصنع
بالسيف والمنسف ويوم ان يسيرون
كم قالةٍ لعقيل والسيف يلمع
ضد الاعادي عزّهم يوم ينوون

وقد اعتادت القوافل أن تبدأ رحلاتها في شهور الخريف اتقاء لبرودة الشتاء وحرارة الصيف. وتتجمع القافلة عادة بعد أن يتم سقيا الإبل واستعداد القافلة بالمياه التي تكفي لاستعمالها للشرب والطهي حتى المورد التالي. وتتحرك القافلة يتقدمها مجموعة من الرماة لصيد الغزلان والطيور. وفي المضحَّى وقت القيلولة تقف القافلة وتُنزل أحمال الثايه التي جهزت بمواد الطهي، ويبدأ الطباخون بتجهيز الغذاء والقهوة. ويتوافد القناصون بما معهم من صيد لتناول وجبة الغداء. وتأخذ القافلة بعد ذلك سيرتها إلى حين وجوب الصلاة ما بين الظهر والعصر، وتتوقف لأداء الصلاة، قصراً وجمعاً، بينما يجهز القهوجيه القهوة والشاي وما يحملونه معهم من الحلويات والتمور. ثم تواصل القافلة مسيرتها ولا تتوقف إلا لصلاة المغرب والعشاء قصراً وجمعاً ويتخلل السير تناول القهوة التي تكون مجهزة في الزمزميات.

وتسير القافلة حتى منتصف الليل، ثم تتوقف للمعشَّى. ويتولى الطباخون تجهيز طعام العشاء بينما القهوجية يجهزون القهوة والشاي، والمساعدون يقومون بوضع الفرش والأغطية، والخويا ينزلون أحمال الثايه، والحراس يتولون مهمتهم في حراسة القافلة. ومن الجائز أن تواصل القافلة رحلتها ليلاً تبعاً لقرب المسافة إلى المورد التالي أو بعدها أو جودة المراعي في هذه الأرض أو التي تليها.

وكقاعدة لتوزيع المياه على الموارد، يقوم أمير القافلة بالاتفاق مع أمير القبيلة التي تقطن على المورد بتوزيع الآبار وتنظيم السقيا بحيث يُقام على البئر أكثر من مقام. وتبقى القافلة على الماء حتى تشرب الرعايا التي غالباً ما يكون قد حُدد لها موعد للمورد حسب ما ينظمه أمير القافلة. فاليوم تشرب كذا رعية، ويحدد أسماء التجار، أما بقية الإبل فتنتظر في مراعيها حتى يرسل لها رسولٌ من الأمير.

وإذا اكتمل شرب القافلة تُجهز الرعايا ويضرب لها موعد على أحد الأمواه القريبة. وتسير القافلة بعد استعدادها لهذا المورد البعيد الذي يحتاج إلى مسيرة قد تطول إلى خمسة أو ستة أيام، وقد لا يكون أمامها من الأمواه بعد موردها الأخير مورد قريب. أو قد تكون المنطقة خالية من المياه، إلا ما يكفي لسقيا أفراد القافلة فقط دون الرعايا. أما إذا كانت المنطقة غنية بمياه الأمطار فإن الرعايا تشرب من هذه المياه وتزيد رحلة القافلة من ثلاثة إلى أربعة أيام ما دامت قد شربت وتزودت بالماء.

فإذا شربت الإبل من مياه الأمطار، فإنها تبقى للرعي من أشجار الحمض التي توفر لها الأملاح، ولو استمرت على رعي الحمض لأضر بها وسبب لها إسهالاً. أما القافلة فتنزل أحمال الثاية وتنصب الخيام ويقوم القناصون بمطاردة الصيد. ويبقى أفراد القافلة في نزهة خلوية؛ من شرب من مياه الأمطار، وصيد الغزلان والأرانب البرية، وطيور الحباري. وفي اليوم المحدد يعاد سقيا الرعايا وتملأ القرب وتسير القافلة إلى حيث المورد التالي، الذي قد يحتاج الوصول إليه نحو يومين أو ثلاثة. ويكون أمير القافلة قد استعد لقيادة القافلة عبر متاهات الصحراء، بحيث يحدد نجماً معيناً للسير على هداه حتى يصل بها إلى المورد المقصود.

وقبل الوصول إلى المورد يسير عادة أمام القافلة حوالي عشرة أفراد من الخويا يسمون القلوط يتعرفون على الماء، وعدد المقامات المنصوبة عليه، وهل عليه ورد للقبائل أم لا، ثم يقصدون إلى رئيس القبيلة ليعلموه بوصول القافلة وأميرها، وعدد الرعايا. وإذا كان البئر مزدوجاً يطلب رئيس القبيلة أن تبقى الرعايا، وتحضر القافلة، وعندئذ تنصب خيامها على المورد، ويحضر رئيس القبيلة وكبار التجار إلى مأدبة عشاء في بيته ويحدد موعد ورد الرعايا ونصب المقامات على البئر، ويخرج إلى الرعايا رجّال الأمير ليحدد لهم موعد الورد. وبعد أن ينتهي

سُقيا الرعايا وتتجهز القافلة للمسير يودعون رئيس القبيلة إلى المورد التالي، بعد أن يقدموا له الهدايا.

قوافل التجارة بالخيول والإبل. وعن هذا النوع من القوافل يقول السويداء في كتابه عقيلات الجبل:

كانت الجزيرة العربية منذ القدم مصدراً رئيسياً للثروة الحيوانية الجيدة من الإبل والخيل والأغنام، وذلك لطيب مراعيها وجودة السلالات الموجودة فيها. فالجواد العربي الأصيل وكرائم نجائب الإبل العربية ذات السنام الواحد بالإضافة إلى الضأن النجدية الجليلة من هذه الجزيرة كانت تُخْرج السلالات الممتازة إلى منطقة الهلال الخصيب العراق وسوريا، ثم مصر والشمال الأفريقي، وكان الذي يقوم بتصدير هذه الحيوانات هم العقيلات. وتأتي الإبل في المرتبة الأولى وذلك لكثرتها وكثافة أعدادها، تليها بالدرجة الثانية الخيول وذلك لعزتها وسمو مكانتها عند أصحابها، سيما وأنها قلعة العربي كما هو معروف، فالعرب لم يتخذوا الأسوار والقلاع وإنما كانت قلعة العربي صهوة جواده كما قال حميد بن الجمال الهلالي:

ونحن ناس بأرضٍ لا حصون لها
إلاَّ الأسنّةُ والجُرْدُ المغاويرُ

ومنذ وقت طويل أورد أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار قوله «وأما البحرين (يقصد الأحساء) فإنهم (أي العقيلات) يصلون إلى باب السلطان وصول التجار يجلبون جياد الخيل وكرام المهاري واللؤلؤ وامتعة العراق والهند ويرجعون بأنواع الحباء والأنعام والقماش والسكر وغير ذلك. ولهم متاجر رابحة وواصلهم إلى الهند لا ينقطع وبلادهم ما بين العراق والحجاز». (هذا الكلام في القرن الثامن والتاسع الهجريين). وكانت تجارة الإبل نجدية وتجارها من نجد (١٤١٦: ٤٢-٤٣).

ويضيف السويداء قائلاً:

إن تجارة الإبل بشكل خاص قد ازدهرت عندما قدمت الدول الغربية إلى المنطقة العربية وبدأت تشتري الإبل لأغراض مختلفة، فقد اشترت بريطانيا في سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م من هذه المنطقة ٢٨٠٠٠ رأس من الإبل والخيول والبغال لغرض النقل في الجيش البريطاني.

وفي الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م) جلب إلى دمشق وحدها ما بين ٣٠٠-٤٠٠ رعية خلال سنة واحدة تتراوح أعدادها ما بين ٢٤٠٠٠-٣٢٠٠٠ رأس من الإبل (١٤١٦: ٤٤).

ولا بد من الإشارة إلى أن كثيراً من العقيلات قد استقروا في الأقطار العربية وخاصة في مصر والسودان، وقد أشار إلى ذلك أحمد لطفي السيد في كتابه العُلَيْقَات مؤكداً أن العُلَيْقات هم العقيلات (١٩٣٥: ٨٦).

قوافل التجارة العامة. يرى السويداء أن هذا النوع من القوافل له ثلاثة مستويات؛ المستوى الأول هو أن تكون القافلة كلها ملكاً للتاجر نفسه، حيث يتولى مع مساعديه تجهيز القافلة وقيادتها بنفسه، أو يوكل نيابة عنه من يثق به ويعتمد عليه. ومثل هذه القافلة قد تحمل صنفاً واحداً من البضائع أو عدة أصناف حسب متطلبات السوق. وهذا ما جعل لتجار القوافل الكبار مكانة مرموقة وشهرة عريضة مكنتهم من الاجتماع بالشخصيات المؤثرة في مجالات الاقتصاد والسياسة والثقافة في المناطق التي يغشونها مثل إسطنبول، وفيينا، وباريس، ومصر، وبومباي، وحيدر آباد. وكانوا يشترون من تلك البلاد البضائع المتعددة الأصناف بكميات كبيرة ويعودون بها إلى الأماكن التي انطلقوا منها. والمستوى الثاني هو أن تكون القافلة ملكاً لاثنين أو ثلاثة من التجار ويتولى قيادتها أحدهم. وتحمل مثل هذه القافلة سلعاً رئيسية وعلى مستوى كبير أيضاً، وتباع بالجملة والتجزئة. أما المستوى الثالث فهو أن تكون القافلة لعدد من التجار يملكُ كل منهم مجموعة من الإبل فيها ويتاجر بما يريد من البضائع. ويتولى قيادة القافلة تاجر مفوضٌ منهم ويتصرف باسمهم حتى تصل القافلة إلى غايتها. وتكون مصاريف مثل هذا النوع من القوافل موزعة بنسبة حصة كل تاجر من الإبل، ويكثر التنافس بين هؤلاء التجار في حال العودة من الحواضر العربية نظراً لكثرة الأصناف والأنواع من البضائع التي يجلبونها ويبيعونها لتجار التجزئة بالأسعار التي ترضيهم (١٤١٦: ٤٥-٤٦).

قوافل النقل العام. تشبه قوافل النقل العام قوافل التجارة من حيث ضخامة عدد الجمال والرجال المرافقين للقافلة. كما أن هذا النوع من القوافل أيضاً له ثلاثة مستويات كما يقول السويداء؛ أولها مستوى يملكه شخص واحد ويكون من المتعهدين الكبار الذين يملكون أعداداً كبيرة

من الإبل جاهزة ومعدة للنقل، وهم يتعهدون بنقل البضائع الكثيرة ولمسافات طويلة، ويشبه عملهم ما تقوم به شركات النقل الكبرى في الوقت الحاضر. وتكون لهم مراكز على الخطوط الطويلة والعامرة، كالطريق الصحراوي بين موانئ الخليج العربي وموانئ البحر الأبيض المتوسط، أو بين المدن الرئيسية في الوطن العربي، وطريق الحج في موسم الحج، ما بين البصرة ومكة المكرمة، أو ما بين دمشق وعمان والمدينة المنورة ومكة المكرمة، وذلك لنقل مئات الآلاف من الحجاج عبر هذه الطرق ذهاباً وإياباً. والمستوى الثاني أن تكون القافلة لعدد من الأشخاص كونوا بمجهوداتهم المشتركة قافلة واحدة يديرها واحد منهم أو أكثر. وهي أقل عدداً وطاقة تقل عن سابقتها ولكنها تقوم بالمهام نفسها، غير أنها تتميز بمرونة أكثر في حركتها وخطوط سيرها المتفرعة إلى مدن ونقاط خارج نطاق القوافل الكبيرة، كنقل البضائع والحجاج. وهذه القوافل بمثابة الشركة المتوسطة في الوقت الراهن. أما المستوى الثالث من قوافل النقل العام فهو الذي يمثل الشركة المساهمة، ويملكه عدد كبير من الأشخاص، كل واحد يسهم بعدد من الإبل المجهزة للحمل تحت قيادة واحدة.

ويرافق أصحاب الحصص غالباً إبلهم ليعتني كل منهم بها ويقوم بخدمتها، وتكون هذه القافلة أكثر مرونة من قوافل المستوى الأول والثاني، ولكنها تؤدي مهمتهما. ويفضل الحجاج السفر مع هذا النوع من القوافل لأنها أسرع وتمنحهم عناية أكبر وتكسب رضاهم (١٤١٦: ٥١-٥٢).

قوافل نقل الحجاج. يعتبر نقل الحجاج وحمايتهم وضمان أدائهم فريضة الحج ثم العودة بهم إلى أماكن انطلاقهم من مكان تجمعهم في بغداد والبصرة والكويت ودمشق من مهام القوافل في الماضي. وكانت قوافل الحجاج مثل قوافل التجارة، على ثلاثة مستويات كما في قوافل النقل العام التي ذكرها السويداء. فمنها قافلة كبيرة يملكها شخص واحد على مستوى جيد من الاستعداد والتأهيل، أو تتولاها السلطات الحاكمة مثل سلطة بني خالد في الأحساء أو سلطة آل مهنا وآل أبي عليان في القصيم أو سلطة آل الرشيد في حائل. ويكون حجم مثل هذه القافلة كبيراً جداً ينقل عشرات الآلاف من الحجاج. وقافلة متوسطة ويملكها شخص واحد أو عدة أشخاص ويتولى قيادتها واحد منهم أو أكثر، وتكون مثل هذه القافلة أكثر مرونة

من سابقتها وذلك لعناية أصحابها بإبلهم ومعداتهم واستبدال ما هزل منها أو تلف من معدات الحمل وغير ذلك مما يستلزم سرعة التغيير من أجل راحة الحجاج. ثم قافلة صغيرة نسبياً يملكها العديد من الأشخاص كل واحد يساهم بمجموعة من الإبل بمعداتها وهم من صغار الملاك، وتكون قيادتها لواحد يختارونه منهم. ومثل هذه القافلة تمتاز بالمرونة والعناية كسابقتها لأن الأفراد الذين يملكونها في دور النمو ويحرصون أشد الحرص على العناية بإبلهم وصيانة معدات النقل في سبيل راحة حجاجهم. وفي مثل هذه القوافل يكون لكل حاج هودج أو محمل يركب عليه ويسمى في الحجاز الشقدف، ويأخذ راحته على ظهر البعير الذي يسير به الهوينى طيلة هذه المسافة من مكان الانطلاق إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة. ويكون لكل قافلة من هذه القوافل علم أو أعلام (بيرق أو بيارق) تميز القافلة عن غيرها ويهتدي بها الحاج. ويتبع كل علم ما بين ٤٠٠٠-٦٠٠٠ حاج ينقسمون إلى عدد من المجموعات كل مجموعة (خُبْرَة)، تتكون من ٦-١٠ أشخاص.

وكان العقيلات بقوافلهم الكبيرة والمتوسطة والصغيرة يتعهدون بنقل الحجاج ولهم تنظيماتهم الخاصة بحيث تأتي المسيرة الرئيسية للحجاج تتبعها شرطة الصيال ويسير في إثر الجميع وعلى مسافة نحو ميلين من المسيرة فيلق من عقيل يحرسون مؤخرة القافلة. وإذا نزلت القافلة شكل عرب العقيلات دائرة حولها لتأمينها من التعديات المفاجئة.

وعندما تحدث الفنلندي والين في كتابه قصة رحلة إلى المدينة ومكة عام ١٨٤٥م عن دخل أمارة آل رشيد في تلك الفترة قال:

> ومنها ما كان من المبالغ التي تفرض على القوافل المارة بالمنطقة للحج أو التجارة وذلك مقابل مرافقتها وحمايتها وتسهيل أمورها ويمثل هذا الدخل حوالي ربع دخل الإمارة. بالإضافة إلى إتاوات الطريق التي تدفع خارج نطاق إمارة حائل بالقرب من مكة المكرمة والمدينة المنورة (السويداء ١٤١٦: ٦٢-٦٦).

الحدرات. هناك نوع من قوافل التموين التي تسمى الحَدْرَات، واحدتها حَدْره كما تسمى الهبيط أو الكيل، واسمها مشتق من الانحدار أو الهبوط للأسواق من موانئ الخليج العربي، كالأحساء والقطيف وعينين (الجبيل) والكويت والعراق إلى مدن البصرة والزبير والسماوة وبغداد والنجف. وقد تذهب

إبل حدرة في ميناء العقير

غرباً إلى موانئ البحر الأحمر، مثل ينبع ورابغ ومكة والمدينة. كما تتجه إلى الشام في بعض الأحيان لجلب الحبوب. وهي قوافل مختصة بالبادية والقرى أكثر من غيرهم، وتهتم بالمواد التموينية والأطعمة بصفة رئيسية كالتمور والحبوب. وربما كان معنى الحدرة، هو قدوم القوافل من أمكنة منحدرة وصاعدة إلى نجد.

وللحدرات انطلاقتان رئيستان، أحداهما في موسم جداد التمر للاكتيال من هذه السلعة الغذائية المهمة، وهناك المديد من البادية. فبعد جداد النخل تتجه مجموعة من البادية لشراء التمر، ويسمَّون المديد، إلى الأحساء أو الحوطة أو القصيم، ويبعث معهم بعض أقاربهم بعيراً أو بعيرين لشراء ونقل ما يلزمهم. وبعد إحضاره يأخذون حاجتهم منه والباقي يتركونه عند معارفهم من الحضر ويسمى وْضاعه، وكلما احتاجوا إليه حضروا وأخذوا منه، كما أنهم يتركون ما يستغنون عنه أيضاً وضاعه، والحضري يبعث معهم أغنامه أو إبله لترعى وقت الربيع من غير أجر، كما أن البدوي يحضر هدية للحضري من سمن أو إقط. وتكون الانطلاقة الثانية عند الاكتيال من الحبوب بعد تصفية حبوب زرع الشتاء، أي في آخر فصل الربيع وبداية فصل الصيف. بالإضافة إلى رحلات متفرقة أخرى كلما دعت الحاجة إلى ذلك في مدة لا تقل عن شهرين، أو بمعنى آخر

لها معدل من ثمان إلى ست رحلات في السنة بما في ذلك الرحلتان الرئيسيتان. ويقوم بهذه الرحلات أبناء البادية أو أبناء القرى أنفسهم حيث يتولون تجهيز هذه القوافل وقيادتها وحمايتها من نقطة انطلاقها إلى هدفها ثم عودتها. وللحدرة من الترتيب والتنظيم ما للقوافل آنفة الذكر، إلا أن من يشرفون عليها هم أهلها في الغالب. وقد يحتاجون أحياناً إلى الاستعانة برجال من عقيل إذا كانت هذه القوافل ستخترق المنطقة التي يكون للعقيلات جاه فيها، فيعبرونها بمعرفتهم وحمايتهم حتى تصل إلى هدفها وتعود إلى نقطة انطلاقها. أما إذا كانت تحركاتها في مناطق داخلية فإن أهلها هم الذين يتولون حراستها وإرشادها وقيادتها. وغالباً ما تقع لمثل هذه القوافل حوادث نهب وسلب من قبل أعداء متربصين بهذه القبيلة أو تلك، أو أهل هذا البلد أو ذاك، سواء كان هذا العدو سلطة حاكمة أم قبيلة معادية أم من قطاع الطرق.

ويذكر السويداء في كتابه عقيلات الجبل أن قوافل الحدرات تنقسم إلى ثلاثة مستويات؛ مستوى كبير يمثل القافلة الرئيسية التي تنطلق مرتين في السنة لإحضار التمور والحبوب. وتكون مثل هذه القافلة خاصة بأفراد فرع القبيلة الذين يضمهم فريق واحد بما فيهم شيخ ذلك الفرع من القبيلة، ويكون لكل فرد من القبيلة اشتراك في القافلة حسب مقدرته. فمنهم من يرسل معها بعيراً أو مجموعة من الإبل، أو قد يصاحبها بنفسه حيث يحضر من التمر والحب ما يكفيه سنة كاملة أو نصف سنة على الأقل، كل على مقدار حجم أسرته أو مكانته ووجاهته وما ينزل عليه من الضيوف. وتتراوح الإبل في مثل هذه القافلة ما بين ٣٠٠-١٠٠٠ بعير تحمل ما بين ٦٠٠-٢٠٠٠ كيس من الطعام من التمر أو الحب على مختلف أصنافه وأنواعه.

ومستوى متوسط يمثل القافلة التي يتراوح عدد الإبل فيها من ١٠٠-٣٠٠ بعير، ويحمل ما بين ٢٠٠-٦٠٠ كيس من الطعام. ومثل هذا المستوى تتكون عناصره من أفراد القبيلة الذين يرتادون مناطق التموين والحواضر لغرض الامتيار والاتجار وجلب السلع التي يحتاج إليها سراة الناس ممن ينفد ما عندهم من مؤنة العام بسبب كثرة الضيوف أو رواد بيوتهم. وهؤلاء دائماً هم شيوخ القبائل والعشائر وأمراء القرى ومن لهم مكانتهم الاجتماعية في القبيلة أو البلدة أو القرية، فهؤلاء دائماً في حاجة إلى الإمداد المستمر.

أما المستوى الثالث فتمثله القوافل الصغيرة التي تقل الإبل فيها عن ١٠٠ بعير، وهي تتخذ للإمداد السريع، سواء بالطعام أو غيره كالقهوة والهيل والقرنفل ونحوه. وهذا المستوى معد غالباً للطوارئ عندما يحتاج الشيخ أو الأمير لشيء من متطلبات الحياة، فينضم إلى القافلة من له حاجة طارئة، فتنحدر القافلة أو تهبط إلى مراكز التموين لتحضر السلع المطلوبة على عجل. وفي الغالب لا يكثر أهل البادية من إحضار الأطعمة إلا إذا خافوا من ارتفاع الأسعار، لأنهم كثيرو التنقل، ويخشون أن يثقل عليهم نقل الطعام مع ما معهم من أمتعة ويجهدهم في النقل، ولا يستطيعون تركه. لذلك فهم يميلون إلى التزود بالطعام عدة مرات في السنة، إلا التمر فإنهم يأخذونه ويخزنون منه كفايتهم في موسمه. أو أنهم قد يلجأون إلى رفاقهم من الحضر حيث يستودعونهم ما يزيد عن نفقتهم من الطعام فيما يسمى الحَضَارْ. ويترددون على رفاقهم الحضر للأخذ من هذا الطعام المودع لديهم بقدر حاجتهم (١٤١٦ : ٦٨-٧٣).

قوافل القبائل (الرحيل والهجرة).

لعل قوافل القبائل (راحله ومهاجره) من أقدم الرحلات التي بدأها العربي على الإطلاق. فالمعروف أن هجرات العرب من الجزيرة العربية إلى مختلف البقاع في قارتي آسيا وأفريقيا، بدأت من اليمن بعد خراب سد مأرب. فكانت كل قبيلة ترحل من اليمن لا تجد واسطة للارتحال عبر الفيافي والصحارى الشاسعة إلا الإبل. وعندما بدأت هذه القبائل بالارتحال مرة أخرى من الجزيرة العربية إلى خارجها، كانت الإبل أيضاً هي وسيلتها إلى ذلك. ومن جهة أخرى، فإن كثيراً من القبائل داخل الجزيرة العربية كانت لها رحلات مستمرة من مكان إلى آخر، طلباً للماء والكلأ، أو فراراً من عدوان القبائل الأقوى القريبة منها، أو رغبة في تغيير منازلها إلى منازل جديدة خصبة الأرض وافرة المياه. وقد ظلت هذه القبائل حتى عهود قريبة ترتحل ولا تعرف الاستقرار، حتى نفذ الملك عبدالعزيز مشروعات التوطين فعرف البدو الرحّل نعمة الاستقرار وبناء المنازل وممارسة الزراعة لأول مرة في تاريخهم منذ أقدم العصور.

وكان شيخ القبيلة أو كبيرها إذا رأى أن المصلحة العامة تقتضي ارتحال القبيلة، أمر أفراد قبيلته بالاستعداد للرحيل بكل ما يملكون من إبل وخيل وبغال وحمير ومواشٍ. فتنتقل القبيلة على شكل قافلة كبيرة على ظهور الإبل في رحلة قد تستمر

أياماً أو أسابيع إلى أن تصل إلى المكان المناسب لتحط رحالها وتبني مضاربها.

وتسمى مجموعة الإبل في حالة ترحال البادية المظهور (الشديد) وجمعها مظاهير إذا كانت بعدد كبير من أفراد البادية؛ قال مدوس الفصام المسعري:

وان جا البراد وهاضهم برق الوسام
روّوا وطوّوا واعلن الشيخ الشديد
قاد السلف يبرى مثوّرة العسام
قِبٍّ عليها من يوصّلها البعيد

وتقول بخوت المرية:

ياجماعه لى نويتوا على انكم راحلين
غمغموني عن مظاهيركم لا اشوفها

وقال عبدالله بن سبيل:

مظهورهم كن الطمامِيع تشعاه
يتلي سلف خيّال من قربت به

وقال أيضاً:

عزي لقلبٍ من شديد العرب باه
بوهة غريرٍ بالمظامي رِمَت به

وقال صحين بن حويزي الدوسري:

ياليت مظهوره يباري ظَعَنّا
يوم التقينا بين عذّال ومْشير

ويقول شالح بن هدلان:

شوري الى هَجّت توالى المظاهير
شلفى عليها رايب الدم قاني

كما تسمى الظعن وجمعها ظعون وهذه الكلمة تستخدم عادة إذا كان معهم أغنام ما عدا قبيلة يام فتستخدمها للإبل.

يقول ساجر الرفدي:

ياما حلى ياخليف زوعة ظعنها
وجرد السبايا قايده قدمها الخور

ويقول ابن سبيل:

الظعن

البدو هم وظعونهم عذّبوني
هنّيت قلبٍ لا عرفهم ولا جوه

وقالت وضحا المشعان الحربية:

ياونتى ونة قعود الظعينه
ليا زمّه المعصير واللي يحدّه
لى ركبته خطو الهنوف الحزينه
قالت حلال القوم ما اشين مشده

أما إذا كانت أعدادهم كبيرة كقبيلة كاملة أو فخذ كامل من قبيلة أو عدة أفخاذ ففي العادة يتقدم الركب أصحاب الرأي والمشورة ومن بيدهم الأمر والنهي وتسمى هذه المقدمة السلف، وتتبعها مراكب نساء البادية من الحني والأغبطة وبقية المظهور من الإبل التي تحمل أغراضه كبيوت الشعر وأدواتهم ومستلزماتهم، أما بقية الإبل كالخلفات والعشار واللقحات فقد تكون في المقدمة أو المؤخرة أو على الجانبين وقد تكون بعيدة عنهم يرافقها الجنب، وهم أبناء القبيلة المسلحون لحمايتها؛ قال راكان بن حثلين:

ولا قادنا من يمّة القفر خيال
أصبح شديد البدو عجلٍ رحيله
مد السلف واستجنبوا كل مشوال
والعصر ياما احلى تخيبط نزيله

وله أيضاً:

يبراه سلفانٍ إلى ناض بارق
نحت له ولو هو نازحٍ من حدودها

وقال الهذيه الدوسري:

يازينكم يمشي سلفكم واحد
حتى العدو منكم يجيه ذعارها

وقال فويران المقابله:

ستين ليله ما يونّي ظعنا
وعشرٍ من الثالث وحنا مدابير
يازين يبرى للتوالي ظعنا
ويرجع علينا جِلّ ذودٍ معاشير

ويقال للبدو عند انتقالهم من منطقة إلى أخرى أنهم حاله وحول يعني متحولين من منطقة إلى أخرى، وجميع هذه المفردات، المظهور والسلف والحول والحاله مفردات عربية صريحة؛ فالمظهور كما ورد في اللسان لابن منظور مأخوذ من الظهر أي الإبل التي يحمل عليها ويركب، وعند فلان ظهر أي إبل ومنه الحديث: أتأذن لنا في نحر ظهرنا؟ أي أبلنا، وتجمع على ظهران بالضم، وفلان على ظهر أي مزمع على السفر، وأورد الشاهد:

لو يستطيعون الرواح تروحوا
معي أو غدوا في المصبحين على ظهر

أما عن السلف فقال: جاءني سلف من الناس أي جماعة وجاء القوم سلفة سلفة أي إذا جاء بعضهم في أثر بعض، وسلاَّف العسكر أي مقدمتهم، وسلفت القوم وإنا أسلفهم إذا تقدمتهم. والسلوف

الناقة التي تكون في أول الإبل إذا وردت الماء وسلاَّف جمع سالف للمتقدم والقوم السلاَّف المتقدمون في السير، وأورد قول قيس بن الخطيم:

لـو عَـرَّجـوا سـاعـةً نُـسـائـلـهُـمْ
رَيْـث يُضَـحِّـي جِـمالـهُ الـسَّـلَفُ

وعن الحول يقول: الـتحول التنقل من موضع إلى موضع آخر والاسم الحِوَل والحويل وأنشد اللحياني:

أُخِـذَتْ حَمُـولَـتُهُ فـأصـبـح ثاويـاً
لا يـسـتـطـيع عـن الـديار حـويـلا

ويذكر موزل في كتابه أخلاق الروله وعاداتهم أنه شاهـد شديد قبيلة الروله بقيادة شـيخهم نواف بن شعـلان وكان عرض جبهة الـشديد يقرب من ثلاثين كيلومتراً.

وكما هو الحال مع القوافل التجارية وقوافل النقل العام، كانت قوافل القبائل تواجه الأخطـار والمشاق، ولهذا كانت تعتمد على فـرسانها للدفاع عنها وعن حلالها خلال تلك الرحلات.

ولا شك أن رئيس القبيلة أو شيخها حريص على أمن قبيلته وسلامة رحلتها، ومن أجل ذلك لا بد أن يضع ترتيبات الرحلة قـبل بدئها، فيـوزع المهام على مجموعـة من رجالها كما هو مـعروف في استعدادات قوافل الرحلات الأخرى، بل يمكن القول إن قوافل الرحـلات في العصور المتأخرة ما هي إلا صورة طبق الأصل لرحلات الـقبائل وإن اختلفـت الأهداف والمقاصد.

وباستعراض مـا سبق نجد أن الإبل قديمـاً وحديثـاً حتى ظـهور السيـارات والناقلات كـانت العمود الفقـري لحياة العربي في الجزيرة العربية، ولولا الإبل لما استطـاع هذا الإنسان البقاء فـي هذه الجزيرة وتأمين متطلـبات حياته العديدة في بيئة صعبة قاسية وموحشة.

المتطلبات الأساسية لرحلات القوافل

كان لا بد لرحلات القوافل من توافر أركان أساسية، سواء أكانت هذه القوافل كبيرة أم صـغيرة، حتى تُحقـق الرحلة النجاح المطلوب، وتـؤدي مهامها بيسر وسهولة. فالقافلة أشبه ما تكون بالجيش الذي يحتاج إلى التنظيم الدقيق والإدارة الحازمة والجنود المخلـصين، إضافة إلى العُدَد اللازمة والـتموين، وأخذ جميع الاحتياطات والاحتمالات في الحسبان.

وتختلف متطلبات القافلة الكبيرة، من حيث الكم والكيف، عن متطلبات القافلة الصغيرة، ولكن الأساسيات تبقى بمثابة القاسم المشترك الأعظم لجميع أنواع القوافل. فإذا كانت القافلة كبيرة؛ قافلة

نقل أو تجارة مثـلاً، احتاجت إلى عدد أكبر من الـرجال والأسلحة والخدمات والتموين وغير ذلك. وإذا كانت القافلة حدرة مثلاً فإنها تحتاج إلى عدد أقل من الرجال ولكنه عددٌ كاف ومناسب لتأدية المهمة، كما تحتاج إلى خدمـات وتموين أقل مما يجب أن يتوافر لقوافل الرحلات الكبيرة.

وقد أورد السويداء في كتابة عقيلات الجبل معلومات عن أحجام هذه القوافل ومتـطلـباتهـا من الـرجال والأسـلحة والأدلاء، وغير ذلك، فذكر أن من أسس الترتيـب والتنظيم التـي تكفل للقوافـل النجاح وبلوغ الهدف المنـشود، انتخاب شيخ أو أمير للقافلة، تسير القافلة بإمرته، ويطيع الجميع أوامره وينـقادون لها دون توان أو اعـتراض، إلا إذا طلب مـنهم المشورة فـي أمر من الأمور وإلا فإنـهم يظهرون له كل احـترام. وتكون للأمير صلاحـيات واسعـة على هـذه الرحلة ورجالها، وهو يتـحمل ما يترتب على تصرفه من تبعات، وعادة لا يكون أمير الرحلة أو شيخها إلا من الرجال المجربين الذين يتمتعون بالرزانة والحكمة والحنكة والأخـلاق الحـسنـة والحـزم والـرويـة والشجاعة وغير ذلـك من الخصال التي تؤهله للقيادة. أما التجار الأجانب فإنهم يزورون شيخ الـقافلة ويتحـفونه بهدايا صغيرة من قماش أو غـيره، ثم يتفقون معه عـلى تكاليف الـنقل والمبلغ الـذي يدفعونه عن حـمل كل بعير من السلع والمبـالغ التـي يدفـعونهـا عن ترحـيل أشخاصهم وخدمهم والمرافقين لهم. ومن ثم يقوم الشيخ ومجلسه بتقدير المصاريف اللازمة لـلرحلة والأعداد المـطلوبة من الجمال والحرس والمرافقين وتقدير أجورهم ورسوم المرور وتكاليف الهدايا التي تدفع لشيوخ القبائل التـي يعبرون أراضيها أو يمرون عند حدودها. وبمعنى آخر يعدون ميزانية الرحلة من كل جوانبها.

إن أميـر القافـلة أو شيخـها يقـوم بمهمات ليـست سهلة مثل إدارة شؤون القافلة والاهتمام بالحراسة، والتعامل مع شيوخ القبائل لكسب ودهم، والتفاهـم مع أصحاب الموارد التي تمر بها القافلة، وتنسيق ورود قافلته على الماء، وتـقديم الهـدايا لأصحـاب الماء، وترتيـب أمر الورود فيـما لو وجد علـى الماء قوافل أخرى، وما إذا كان الماء كافياً أو يجب أن يتعدوه إلى مورد آخر أوفر منه ماء، وغير ذلك مـن المهام التي توكل إلـيه. وكل ذلك يؤديه أمير القافلة أو شيـخها دون أي مقابل إلا لمجرد أنه أمير القافلة أو شيخها؛ فيكتفي بالسمعة فقط.

وإذا كانت القافلة كبيرة احتاجت إلى أعداد كثيرة من الرجال من الحراس ورجال الخدمات للتحميل والتنزيل. أما إذا كانت لتجارة الإبل والخيول فإن الخدمات فيها تنصب على الرعيان ومن يقومون بعملية السقي. فقافلة تتكون من ٥٠٠-٧٠٠ خيمة أو شراع يتكون حرس القافلة فيها من ٤٠٠-٦٠٠ رجل، وعدد مماثل من الرجال للخدمات. وقافلة تتكون من ٣٠٠-٤٠٠ خيمة تحتاج من الحرس إلى عدد يتراوح ما بين ٢٠٠-٤٠٠ رجل، وعدد مماثل للخدمات. وكلما ارتفع عدد الخيام في القافلة احتاجت إلى حراس أكثر، ويقل هذا العدد طردياً كلما انخفض عدد الخيام. أما بالنسبة للقوافل التي بضاعتها الإبل والخيول فإنها تقسم إلى رعايا؛ فقافلة تتكون من ٢٠٠-٣٠٠ رعية، تتكون الرعية فيها حسب التقسيم من ٨١-٩١ رأساً من الإبل، منها ٨٠ أو ٩٠ رأساً من الإبل العادية والعدد الفردي هو القعده وهي مطية الراعي، وقد تكون الرعية أقل كما ذكرنا آنفاً. فمثل هذه القافلة تحتاج من الرعيان والملاحيق والخويا أو الحرس إلى عدد يتراوح ما بين ٤٠٠-٦٠٠ رجل، وكلما زادت أعداد رعايا القافلة من الإبل، زاد عدد الرجال الذين تحتاج إليهم. غير أن الخيول تحتاج إلى رجال أكثر وذلك لحاجتها إلى الماء. وتتراوح رعايا الخيل من ١٠٠-٢٠٠ فرس وبذلك تحتاج إلى ضعف عدد الرجال والإبل التي تحمل الماء للخيل في المحالات أي الرحلات المتواصلة. ويحمل الماء للخيل في الروايا على ظهور الإبل، مع مراعاة أن سير القوافل التي معها خيول يكون بطيئاً نظراً لقصر المسافة التي تقطعها الخيل يومياً ولحاجتها إلى الماء. وتنتظر مثل هذه القوافل هبوب الرياح الموسمية في البحار الهندية، وعند ذلك يدفع تجار الخيل ورعاتها بالخيول عبر المسارات الشمالية ويقطعون بها سبع عشرة مرحلة حتى يصلوا بها إلى الكويت، ويسوقون معهم في رحلتهم إبلاً تحمل لهم ولخيولهم مياه الشرب التي يحتاجون إليها من الموارد التي يمرون عليها. وبذلك يتضح أن القوافل التي تكون تجارتها الخيول هي أصعب من التي معها الإبل نظراً لأن الإبل تتحمل الظمأ والسير لمسافات طويلة دون الحاجة إلى الماء.

وكذلك تختلف القافلة التي تحمل البضائع عن القوافل التي تحمل الحجاج الذين تتراوح قوافلهم ما بين ٢٠٠٠-٣٠٠٠ فرد وقد تزيد عن ذلك. فمثل

هذه القافلة الكبيرة تحتاج إلى حوالي نصف هذا العدد من رجال الخدمات الذين يعملون في التحميل والتنزيل والسقيا على الموارد. فإذا افترضنا أن مع هذه القافلة حوالي ثلاثة آلاف بعير، فالمورد الذي يكفيهم من الماء يكون عادة على مراحل، وتستمر عملية السقي بالليل والنهار على مدار الساعة بحيث تروى إبل القافلة ويأخذ الرجال ما يحتاجون إليه من الماء في قربهم ورواياهم. كما أن مثل هذه القوافل الكبيرة تحتاج إلى العديد من الحراس.

أما القوافل التجارية فإن الجند المرافقين لها يتناسب عددهم طردياً مع حجم البضائع التي ينقلونها وقيمتها، حيث تضاف تكاليف الحُراس ومصاريفهم إلى قيمة البضائع، وغالباً ما يكون لحمل كل بعير من القماش رجل مسلح واحد يحرسه. أما إذا كان المتاع المحمول من السكر أو البن وما إلى ذلك من السلع الأدنى سعراً، فيقوم حارس واحد بحراسة بعيرين. ولا يقل عدد الحراس المصاحبين لقوافل التجارة عن مئة حارس بالإضافة إلى شيوخهم. يضاف إلى ذلك عدد كبير من الرجال يعرفون بالجمَّالة مهمتهم العناية بالإبل. وتتراوح أعداد الإبل في قوافل التجارة ما بين ١٢٠٠-٥٠٠٠ بعير، وغالباً ما يكون ثلث هذا العدد محملاً بالسلع وثلثه الآخر لركوب التجار والمسافرين والثلث الأخير للأحمال مما يخص رجال القافلة من خيام وأوانٍ وأطعمة وغيرها.

ويتناسب عدد الرجال المسلحين لحماية القافلة مع حجم القافلة. فكلما كانت القافلة كبيرة احتاجت إلى عدد أكبر من الرجال المسلحين؛ وكلما كانت القافلة ستمر في مناطق خطرة احتاجت لعدد أوفر من الرجال المسلحين. وكذلك تعتمد حماية القافلة على نوع البضائع التي تحملها، فإن كانت سِلَعاً ثمينة فإن القافلة تكون عرضة لأطماع الطامعين فتكون حاجتها إلى حراسة مشددة أكثر. أما في الأحوال العادية فإن الأمر يكون أهون بحيث يخصص لكل بعيرين رجل واحد يحرسهما. ويتخذ الحُراس غالباً من الشباب والكهول الخفيفين الشجعان الذين لهم معرفة بالطرق وعادات وتقاليد القبائل التي يمرون بأرضها وطبائع أفرادها. ويتم الاتفاق معهم في كل رحلة على أجر معين بحيث يكون هذا الأجر خارجاً عن مصاريف الطريق من الأكل والشرب. ويتم الاتفاق على الأجر إما ذهاباً وعودة أو ذهاباً فقط. وتتراوح الأجرة ما بين ٥-٨ جنيهات ذهب للرحلة

الواحـدة، وقد تكون الأجـور بالنقـود الفـضية كـالريال الفـرانسي أو إحـدى العملات الأخرى. فـقد بلغت الأجرة من القصيم إلـى عمان للفرد ١٥ ريالاً فرانسياً وبلـغت أجرة الرجل من حائل إلى عمـان ١٢ ريالاً فرانسيـاً. كما أن الأجرة إذا كانت بالشهر تتـراوح ما بين ٥-٨ ريالات، والرحـلة قد تبلغ أكـثر من شهر. وقـد تزيد الأجرة أو تنقص حسب العرض والطلب وكفاءة الشخص ونوعية الحملة. أما القوافل التـي تكون البضاعة فيها الإبل أو الخيل فإنها بحاجة إلى رجال الخدمات أكثر من حاجتها إلى رجال الحـراسة المسـلحين، لأن الإبـل أخف حركة من قافلة الأحمال وبذلك تقطع المسـافة في وقت أقصر. كما أن الخيل تحـتاج إلى خدمات أكثـر خاصة فيما يتعلق بسيرها وحذوها وتعهدها بالماء والعليق.

وهؤلاء الرجال المسلحون يؤمن لهم السلاح مـن قبل التـجار المتعهـدين أو أصحـاب القـوافل الكـبيـرة من كبـار الناقلين، أما أصحاب القوافل المتوسطة والصغيرة فغالباً ما يؤمن الحارس سلاحه بنفسه، غير أن صاحب القافلة يؤمن لهم الذخيرة أو يعطيهم مبالغ معينة ليشتري كل واحد منهم ذخيرة لبندقيته، خاصة بعد أن تعددت أنواع البـنادق في الفترة الأخيرة. وكان سلاح مصاحبي القوافل قديماً يشمل السيف والرمح والنبال ولكن بعد اسـتخدام السلاح الـناري، أصبح يتكون من المسدس أو البندقية الـصغيرة والبندقية الكبيرة ذات الفتيل، بالإضافة إلى الـسلاح الأبيـض وهو الخنجـر أو السكين التي لا تفارق حزام البطن ومعها الذخيرة للبندقية ذات الفتيل، وهي ملح البارود وكريات القصدير وفتائل الإشعال وزناد القدح وخرق إشعال النار وقطعة من حجر الـصوان. وكل رجل مسلح يحوي حـزامه هذه العناصـر ويجهزها ويستعملها في أسرع وقت ممكن. هـذه الذخيرة كانت لذات الفتيل والبندقية التي جاءت بعدها وهي مـطورة منها تسمى القبـسون أو المقمع أو الـسليمي وذات الأصبع والريفل ثم العصملي ثم الشرفا وهذه لها طلقات. ثـم تغيرت الذخيرة وأصبحت على هيئة أصابع تسمى فشقْ أو جبخان أو قفوشْ وتسمى فقوشْ عندما تكون الطلقات فارغـة، وأصبح الرجل المسلح يتمنطق بحزام مرصوص بقذائف من ذخيرة الأسلحة.

أمّا الأدلاّء والمـعرّفـون فإن حـسن اختيـارهم من العنـاصر المهمة لـنجاح رحلات القـوافل؛ فهم الذين يـعرفون

مسالك الطريق خاصة في الصحراء التي لا يوجد بها معالم واضحة، أو في رمال النفود التي تنعدم فيها الأعلام والجبال خاصة في السرى ليلاً وبالأخص في الليالي التي تكون فيها السماء ملبدة بالغيوم، أو يكون هناك قتام وغبار في الجو يحجب رؤية النجوم التي يستدل بها سراة القوافل تحت جنح الظلام. في مثل هذه الأحوال الجوية تقع على عاتق الدليل مسئولية القافلة بكاملها. فهو إما أن يهديها ويدلها إلى الطريق الصحيح، ويوصلها إلى موارد المياه، أو أن يضيعها ويؤدي بها إلى المهلكة. وقد تحدث أوضاع غير الظروف الطبيعية المشار إليها بأن يكون هناك خطر على الطريق المعروف من غزاة قد كمنوا للقافلة من غير رجال القبيلة التي يمرون بأرضها، فيضطر أمير القافلة إلى تغيير مسارها إلى طريق آخر ليتجنب هذا الخطر. وهنا تأتي أهمية الدليل حيث يطرح عدداً من الخيارات لسلوك أكثر من طريق يوصل القافلة إلى الطريق الآمن دون أن يعرضها لذلك الخطر الكامن لها، أو أن تكون لدى أمير القافلة خطة بتجنب مراكز تحصيل الرسوم فيسلك طريقاً مغايراً للطريق المعروف ليتحاشى دفع الرسوم. وهنا يبرز دور الدليل، فالدليل مهم جداً للقافلة وعليه اعتماد كبير. ويمتاز الأدلاء بدقة الحدس وصواب الرؤية ومعرفة الأرض بأعلامها من الجبال والهضاب

الدليل أو المُعرِّف

والقارات والحزون والحزوم والأودية، أو معالمها الفارقة التي توضع على الطريق والأشجار وغير ذلك. ليس هذا فحسب بل إنهم يعرفون وجهة السير ليلاً ونهاراً، ففي النهار يسترشدون بالشمس، أما في الليل فيستدلون بالنجوم والكواكب. وفوق ذلك فإن بعض الأدلاء يعرف حتى تراب الأرض التي يمرون عليها سواء باللمس أو الشمّ. وقد اشتهر عدد من الأدلاء في هذا المجال، وكان أحدهم يأخذ ملء قبضة يده من تراب الأرض ويفركه بكفه ثم يشم رائحته ويقول «نحن في الأرض الفلانية»، أو يستدل عليها بالنبت والشجيرات التي تنبتها تلك الأرض. وهكذا فإن أهمية الدليل في القافلة تجعله بمثابة البوصلة لبحّار السفينة، وتحتاج كل قافلة على الأقل إلى دليل واحد وربما أكثر من واحد. ويعطى الدليل من الأجر ما يرضيه ويجعله متوافقاً مع هذه القافلة راغباً في صحبتها والسير معها.

أما الفئة الثانية من هذه العناصر فهم فئة المعرّفين (السيّر) وهم رجال لهم مكانتهم في قبائلهم، بما لهم من علاقة مع شيخ القبيلة أو هم ممن يرشحهم شيخ القبيلة أو ممن يثبتون لشيخ القبيلة فعاليتهم وحذقهم وجدارتهم. وعلى كلٍ فشيخ القبيلة مستفيد من وجود أحد أفراد قبيلته مع هذه القافلة أو تلك، لأنه يجلب للشيخ المزيد من الهدايا بالإضافة إلى الإتاوة التي يحصل عليها الشيخ. ولهذا فإن لوجود المعرّفين من القبائل في القوافل مردوداً مادياً ومعنوياً لكلا الجانبين. فالمعرّف نفسه مستفيد مادياً بالأجرة التي يقبضها ويعطي جزءاً منها لشيخ القبيلة، ومعنوياً بمكانته بين أفراد القافلة. والقبيلة مستفيدة مادياً بما يصل إلى شيخها من هدايا وأموال، ومعنوياً بشعور من يعبرون أراضيها أنهم في كيان تلك القبيلة وتحت مظلة شيخها ومعرفة أحد أفرادها. وأما التجار فهم أيضاً مستفيدون مادياً بضمان مرور بضائعهم وممتلكاتهم وأرواحهم بأمان وسلام، ومعنوياً بأنهم على علاقة طيبة مع مجموعة من شيوخ هذه القبائل التي يمرون بأراضيها عدداً من المرات في السنة. وتصبح علاقة بعضهم ببعض حميمة، ويعتبر التجار أن ما يدفعونه من أموال لهذه القبائل، سواء لشيوخها أم معرفيها، مبالغ ضئيلة تُحسب من ضمن المصاريف وتُضاف على أثمان البضائع. وعند دخول القافلة أراضي القبيلة، يرفع المعرف أو الرفيق من هذه القبيلة علماً معيناً أو إشارة معينة تخص هذه القبيلة ويعرفها أفرادها. وعندئذ لا

يعترض أحد هـذه القافلة، وإن اقترب منها أحـد فإن المعرف أو الرفيق يـنادي بأعلى صـوته أن هذه القافلـة في وجه فلان الفلاني، ومن ثم يكـف من أقدم على الـقافلة ويتراجـع. ويندر تعرض القوافل للسطـو مع وجود هؤلاء الرفق أو المعرفين الـذين هم من أبرز القبـائل التي تنزل فـي تلك الصحارى أو على أطرافها. كما أنهم يحتفون بشيوخ القبائل ويقدمون لهم الهدايا. ويتخذ الرفقاء من مخـتلـف القبـائل مـثل شمـر وعنزة والشرارات والحويطات وبني عطية وبني صخـر والظفـير ومطيـر وغيرهـم من القبائـل. وتحتاج كل قافلة إلـى معرف واحد من كل قبيلـة، فإذا تصورنا عدد هذه القوافل التي تجوب تلك الصحارى ذاهبة وآيبة على مدار السنة، أدركنا مدى الحيوية والتفاعل والمصلحة المشتركة التي تجري على أرض هذه المنطقة الحيوية.

ولا غنى للقافلة عن رجال الخدمات الأخرى ولذلك تولي القوافل هذا الجانب اهتماماً خاصاً لما له من أهمية. فهؤلاء الرجال هـم عصب القافلـة الذي يشد هيكلها، والقوة الفعالة التي تبعث فيها الحيوية والحركة. ومن غيرهم لن تبرح القافلة مكانها، فهم الذين يشدون أحمال البضائع على الإبل وينزلونها عنها، وهم الذين يتولون سقيا الإبل ورعـيها، كما يتولون أداء الخدمات لرجال القافلة من نصب الخـيام وتقويضـها عند الرحـيل وتحميلها، وإعداد القهوة والشاي وإعداد الطعام، وغير ذلك من الخدمات. ولهذا نجد فئـاتهم تشمـل الرعيان والملاحـيق والقُلُوط والجـمالين والرواة والقهوجيـة والطباخـين والمناديب والأئمة والخطبـاء والحدادين.

والرَّعْيَان هم الذين يتولون رعي الإبل والاهتمام بها وإيرادها الموارد، وعزل كل رعيـة وحدها، والمَـلاَحِيْـق وواحدهم مِلْحَاقْ يساعدون الرعاة في تجميع الإبل، ويكون مكانهـم في الغالب في مؤخرة الرعايا وعلى جوانـبها لإلحاق المتخلف وإعادة الناد (المتـقدم) منها بينمـا يكون الراعي في مقدمتها، ويتولى القُلُوطْ أو السُّبُورْ مهمة رجال الاستطلاع، يرسلهم أمير القـافلة أمام القافلـة قبل انطلاقها ليستطلعوا ويسبروا الطريق ويكتشفوا إن كان هناك مـخاطر في الطريـق، أو أي معلومـات عن الطريق المراد سلوكـه أو المورد المقصود وروده. ثم يعودون ليخبروا الأمير بمـا رأوه أو سمعوه قبل انـطلاق القافلة. ويتولـى الجَمَّالون تحميل الإبل عند انطلاقها وإنزال الأحمال عنها عند إناختها للراحة أو الإقامة، والعناية بالإبل

وأدوات الحمل من أشدة وحدائج ومسامات وهوادج ومحامل وأوثار وحبال، وتفقُّد هذه الأدوات وإصلاحها وصيانتها وعلاج آثارها في الإبل وغير ذلك مما يتعلق بعملية التحميل والتنزيل، ونصب الخيام وتقويضها ولفها ثم تحميلها. وهناك الرواة وهم الذين يتولون نقل الماء لأفراد القافلة، خاصة القوافل التي تجارتها الخيل، فإن الرواة يمثلون الثقل في عدد رجال القافلة. أما في القوافل الأخرى فهم الذين يقومون بمتح الماء من الآبار وسقي الإبل وتأمين الماء للقافلة في الروايا.

ثم يأتي دور أصحاب القهوة (القهوجية) الذين يتولون صنع القهوة وإدارتها، وأحيانا يُنتخب من كل فرقة أو مجموعة واحد منهم يصنع لهم القهوة ويديرها عليهم. يضاف إليهم الطباخون الذين يقومون بإعداد الطعام لرجال القافلة أو لأكبر عدد منهم. ويسمى الطباخون وأصحاب القهوة رجال الثايه. وتكون لدى الطباخين أوعية الطعام ومصروف القافلة، ورئيسهم هو المسؤول عن ذلك.

أما إمام القافلة وخطيبها، فتكون مهمته الأذان وأداء الصلوات برجال القافلة وتبصيرهم بأمور دينهم. كما يقع عليه العبء الأكبر في تقريب وجهات النظر بين الطرفين المختلفين في البيع والشراء في حالة اختلافهم، ومدى شرعية البيع وصحته. كما يقوم بتدوين المبايعات والعقود والرسائل التي يوجهها أمير القافلة إن كان الأمير لا يجيد القراءة والكتابة. ويبقى من مجموعة مرافقي القافلة الرسل أو المندوبون (المناديب)، ويسمون المناجيب وهم النجّابون (واحدهم نجّاب)، يكلفهم أو يرسلهم أمير القافلة إلى من هم في طريق القافلة من شيوخ القبائل أو المشرفين على موارد المياه، وذلك لتنسيق ورود القافلة في اليوم المحدد، أو لإيصال رسائله إلى شيوخ تلك القبائل فيما لو وقع خصام مع أفراد من هذه القبيلة أو سوء تفاهم حول موضوع معين. وأخيراً الحدادون، الذين يرافقون القافلة التي معها خيل بصفة خاصة، ويكون مع القافلة حداد واحد أو أكثر حسب حجم القافلة، وذلك لحذاء الخيل عندما تمر بأرض خشنة خشية إصابتها بالحفا أو ملاحظة حذاء الخيل كلما نسعت وتآكلت استبدلها.

وهكذا نلاحظ أنه ليس هناك اختصاص من هذه الاختصاصات إلا ويقوم به الموكّل به، ولكن يمكن لكل من بالقافلة أن يؤدي ما يوكل إليه ويطلب منه وإن لم يكن من عمله، ليس بأمر

أمير القافلة فحسب، بل انطلاقاً من روح التعاون والتكاتف والتفاني للوصول إلى الهدف المنشود (١٤١٦: ١٧٨-١٩٤).

يوم من رحلة قافلة

أشرنا آنفاً، في حديثنا عن أنواع رحلات القوافل، إلى أن بعض قوافل النقل تكون كبيرة جداً من حيث عدد الإبل وعدد الرجال المرافقين لها، إذ قد تبلغ إبل القافلة حوالي خمسين ألف جمل، وعدد المرافقين حوالي عشرين ألف رجل لخدمة القافلة وحمايتها، وكان ذلك في زمن مضى لم يكن يتوافر فيه الأمن والأمان. ومن الطبيعي أننا لن نسجل يوماً في رحلة قافلة من هذا النوع، ولكننا سوف نتحدث عن يوم في رحلة قافلة صغيرة للتموين (حدره) لا يزيد عدد إبلها عن رعية واحدة أي ما يقرب من مائة بعير. كما لا يزيد عدد المرافقين عن ١٠-١٥ مرافقاً بما فيهم رئيس القافلة وخاصته والرعاة وأصحاب الخبر.

ومثل هذه القافلة (الحدره) قد تكون رحلتها داخلية أو خارجية قصيرة، من نجد مثلاً إلى العراق أو إلى اليمن أو الحجاز. ولا تستغرق مثل هذه الرحلة في الحالين أكثر من أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. وتختص مثل هذه الرحلة غالباً بنقل المؤن في الذهاب والأياب. فهي تنقل بعض أنواع التمور والجلود والملح والسمن والإقط والصوف وغيره، من نجد إلى العراق أو اليمن. وتعود محملة ببضائع أخرى كالقمح والأرز (التمّن) وغير ذلك مما يتوافر في الموانئ البعيدة عن نجد. فعندما يُعلن صاحب قافلة من هذا النوع أنه سيذهب إلى جهة ما لجلب المؤن، فإن من يملكون الخمسة جمال أو العشرة جمال أو أقل يطلبون من صاحب القافلة الرفقة (الصحبة) في هذه الرحلة للغرض نفسه. ولا يرفض صاحب القافلة في الغالب طلبهم لأنه يريد أن يزيد عدد القافلة ليشعر المسافرون بالاطمئنان والونسْ. ويسمى هؤلاء الذين يطلبون الانضمام إلى القافلة بجمالهم الخُبَر، وكل مجموعة منهم تسمى خبرة. ولكل خبرة مسؤول ومرافقون وخدم. وتخدم الخبرة غالباً نفسها بنفسها، ويكون طعامها وخيامها وجمالها منفصلة شكلياً عن القافلة، ولكنهم تحت إمارة واحدة أو رئيس واحد هو رئيس القافلة أو كبيرها، الذي يتمتع بصفات الرجل العاقل الرشيد المجرب. ولذلك فإن أصحاب الخبر، أي المجموعات الصغيرة يطيعونه ويعملون برأيه في الحل والترحال ولا يعارضونه أبداً لأنهم يعلمون أن

حرصه عليهم وعلى جمالهم كحرصه على رجاله وجماله.

ومن ناحية أخرى قد ينضم إلى هذه القافلة، سواء من بداية الرحلة أم خلال الطريق، مسافر لأي غرض مثل طلب العلم أو للبحث عن عمل في الجهة التي ستسافر إليها القافلة، وفي هذه الحالة لا يمانع رئيس القافلة من قبوله معهم، بل قد يتعهد بتأمين طعامه والصرف عليه تكرماً أو طلباً للأجر والثواب.

وفيما يلي تسجيل مختصر ليوم واحد من رحلة هذه القافلة (الحدره) وسوف نضيف إلى هذا السجل، بعض المصاعب أو المشكلات التي قد تعترض مسيرة القافلة، وهي في الواقع مصاعب ومشكلات قد تعودها الجمّالة كثيراً خلال رحلاتهم.

يبدأ يوم الجمَّال من قبل أذان الفجر، فيستيقظ صاحب الإبل ويوقد النار ويعمل القهوة ثم يعمد إلى إيقاظ مرافقيه ويأمرهم بتنشيط أو (دك) الإبل من المراح لتقف وتفتح أرجلها وتتباول، والجماعة يشربون قهوتهم بسرعة. ثم يُحضر كل بعير إلى حمله، وبعضها يعرف مكانه فيبرك بين الأكياس ثم يبدأ الشيل أو الحمل بأن يتقابل شخصان ويمسك أحدهما بذراع الآخر، واليد الأخرى لكل منهما ممسكة بأسفل الكيس ثم يحملانه ويضعانه على جنب الناقة. وفي المقابل شخصان آخران يعملان مثلهما ثم تُدخل العيون (القلاوي) في بعضها وتلمظ بالملماظ أو الشظاظ. وفي بعض الأحيان يكون هناك ثلاثة أشخاص فقط فيحمل الكيس اثنان ويُطلب من الثالث أن يردع الكيس ويذهب الاثنان لحمل الكيس المقابل ثم يلمظان بالملماظ كما سبق.

وينجز هذا العمل في مدة وجيزة لا تتجاوز ربع ساعة، وتكون خلالها كل الإبل قد حُمّلت بسرعة مذهلة وهم لا يتعبون من ذلك لأنها أصبحت عادة ألفوها. ثم بعد ذلك تنهض الإبل وتساق أمامها القعدة التي تقود الإبل ويركبها الراعي عند العودة من المرعى، وينده أي ينادي الراعي لها وتتبعه. فإذا قامت الإبل من المراح تخلف أحد الرجال وتفقد المكان لئلا يكون هناك أشياء قد تركت خطأ ثم يلحق بهم. فإذا ساروا مسافة قصيرة واطمأنوا على سير القافلة، تكون صلاة الفجر قد حانت فيؤذن أحدهم ويقفون للصلاة. أما الإبل فتستمر في سيرها في الاتجاه المطلوب ومعها واحد منهم. فإذا أتموا صلاتهم لحقوا بالإبل وتركوا زميلهم ليصلي، ويكون صاحب الإبل راكباً فوق ذلوله التي عليها الشداد والخرج والأشياء المهمة.

وتكون بالقافلة عادة ناقة (رحول) كبيرة السن، قوية تحمل حملها ويتعاقب المرافقون على ظهرها كل واحد يأخذ عقبه أي ركوب ساعة تقريباً ثم يحل محله آخر، وقد تكون الرَحُول بعيراً وليس ناقة. ويتم الركوب والنزول من هذه الرحول وهي واقفة فلا تبرك. أما إذا كانت الرحلة ذلك اليوم طويلة، فإن رئيس القافلة يتنازل ويترك فرصة لرفاقه لأخذ عقبة على ذلوله.

فإذا أضحى الضحى ووجدوا مكاناً مناسباً به مرعى لإبلهم أوقفوها لترعى،

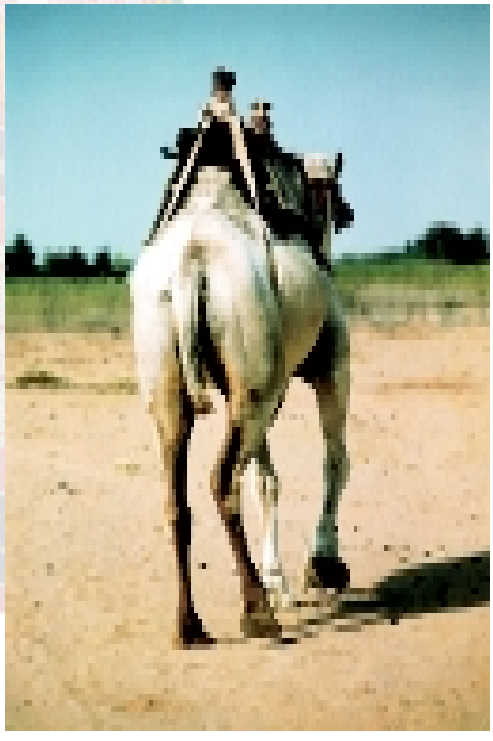

الرّحول

وعليها أحمالها. وأسرعوا بإيقاد النار لتسخين القرص الذي أعدوه في المساء ليأكلوه، وتسمى هذه الوقفة مضحّى. ثم يواصلون سيرهم حتى يصلوا إلى مكان مريح لإبلهم وبه مرعى، ويكون ذلك تقريباً بعد الظهر. وتسمى هذه المسافة رْحَلَه، وقد تطول إلى ما بعد العصر. والرحله (المرحله) مسافة محددة لدى أصحاب القوافل، فتجدهم عندما يصفون مكاناً يقولون إنهم على بعد رحله، أو رحلتين وهكذا. فإذا وصلوا إلى المكان المطلوب برّكوا الإبل، حتى إذا استوت باركة لمظ عن كل واحدة فينزل الحمل وتبقى عليها المسام والحدايج ما عدا الشداد، فيوضع عن الذلول لأن عليه الجاعد والنطع والميركة (الدويرع) وكلها من الجلد فيخشى عليها من الأمطار. كما أن الشداد يظل متكأ للكبير وزواره. ثم بعد ذلك يدعو (يشايع) الراعي الإبل بصوت تعرفه ويتجه بها إلى المرعى وغالباً ما يكون النداء للإبل الراعية. أما بقية الرجال فيتوزع عملهم؛ فمنهم من يجمع الأثاث وتسمى الثايه من المزاود الخاصة بالزهاب والقرب، ويقربها من مكان الجلوس لحفظها من الضباع وغيرها من الحيوانات التي إذا شمت الماء أتت إليه، وأهم شيء لديهم

هو الماء. ومنهم من يذهب لإحضار الحطب وأغصان الأشجار لعمل عِنَّه (سياج)، فيحيطون مشب النار والمكان الذي سيجلسون فيه بأغصان الأشجار وبعض الأثاث، للحماية من الهواء والبرد، وآخر يحفر لمشب النار ويحضر أدوات القهوة والطبخ. وكل واحد من القافلة يعرف مهمته وعمله المنوطً به.

وقد تتفق مجموعة من أهل البلد على المرافقة في السفر وتسمى خُبْره، وجمعها خُبَر، فتجتمع خبرتان أو أكثر فيرحلون سوياً وينزلون سوياً، ولكن لكل منهم إبله على حدة، فلا تختلط؛ ولكل خبرة رعاتها ومعداتها. وعند النزول يجلس بعضهم قريباً من بعض فيتزاورون ويشربون القهوة سوياً ويتداولون الأحاديث ومعظمها عن إبلهم وخط سيرهم غداً، ومكان النزول، فأكثرهم خبراء بالطريق ويعرفونه موضعاً موضعاً. ويُخط مسجد بينهم يجتمعون للصلاة فيه، وتكون صلاتهم من أول سفرهم حتى عودتهم جمعاً وقصراً. ويختارون كبيرهم لاستشارته في أمورهم لتجاربه السابقة ومعرفته الواسعة بأمور القافلة. وتوقد النار أول نزولهم حتى وقت نومهم، ويبدأ في إعداد طعام العشاء بعد المغرب ويتكون عادة من أرز وسمن، أو جريش وسمن وإقط. أما اللحم فقليل ولا يجدون منه إلا ما ندر كصيد ظبي أو أرنب أو ضب أو بقية من لحم حميس أو قفر. ويعتمدون كثيراً على التمر. وبعد العشاء بقليل تكون الإبل قد أخذت حظها من الرعي، فيعرف ذلك الراعي فينده لها بصوت عال لتجتمع حوله. فإذا سُمع صوته، قيل لمن عند النار وَقِّص، أي أوقد على النار لتشتعل ويصير لها شعلة، وذلك بوضع شجرة عرفج مثلاً ليرى نارها الراعي والإبل فتتجه نحوها فلا تضل عن المكان. فإذا وصلت إلى المراح وقفت قليلاً ثم بركت وأمرحت. وبعد وجبة العشاء يجلسون جوار النار للتدفئة والحديث عن الإبل والمرعى.

ثم يطلب المعزّب من أحدهم بأن يحوف على الإبل ليتفقد المسام والحدايج لئلا يكون بها خلل، كقطع وَسْر أو كسر، أو أن تكون إحدى المسام ملتصقة بظهر الناقة فتؤثر فيه. ثم يأوي كل واحد منهم إلى فراشه، إلا واحداً يقوم بعجن بعض الطحين ووضعه في المله (رماد النار) لعمل قرص ثم يخرجه بعد استوائه وينظفه ويفركه ويضعه في قدر بعد وضع قليل من السمن عليه لأكله غداً صباحاً في المضحى، ثم يضع عدداً من الدمن

داخل المله ويدفنها، خصوصاً أيام الأمطار لأن الولعه عادة تكون ندية فـلا تشتعل النار بسرعة، وتسمى هذه بالورثه. ففي الصباح عندما يُحـرث مشب النار يجد أن الدمن أو الـعيدان أو الحطب مـهيأة للوقود، فيوقد بها النار. والذي يتـولى عادة أعمال الـقهوة والطبخ هو صـغير المجموعة ولديهم مثل يقول «صغير القوم خادمهم».

والجمَّال يتمنى المطر ولكن في بعض الأحيان تكون القافلة محملة بالسكر أو الأرز، فإذا رأوا سحاباً قريباً منهم وتوقعوا نزول المطر سارعوا إلى النزول في أرض مناسبة ونصبوا خيمتهم وصفوا البضاعة بداخـلها حتـى تنجـلي الغيـمة. وقد يضطرون لـلإقامة أياماً بسبـب الأمطار فيقولون مقيمين أو «قامه ولا هيب ندامه» وسبـب خشيتـهم من المـطر أن المسـام والحدائج تؤثر بالقد وهذا يلين مع المطر، بالإضافة إلى ما يحدثه المطر للسكر من تلف وذوبان.

وفي بعض الأحيان إذا نزلـوا منزلاً ورأوا الغـيوم صفوا الـبضاعـة، داخل الخيمـة، فإذا انجلت الـغيوم وزعوها. فيعود السحاب فيلجأون مرة ثانية لجمعها وإدخالها في الشراع أو الخيـمة من غير سأم أو تعب. ولشدة فرحهم بالمطر تهون عليهم كل مصيبة أو تعب. وفي بعض الأحيان إذا وجدوا أرضاً معـشبه أقاموا بها أياماً، وإذا وجدوا أرضاً مجدبة غذوا السير طوال يومـهم ليقطعوها لأن أهم شيء لديهم وجود المرعى لإبلهم.

ووجود أكثر مـن خبره في القافـلة يكون مدعاة لأن يؤنس بعضهم بعضاً. وعادة يختارون شخصاً للرجوع إليه يكون أكثرهم خـبرة أو أكبرهم سناً، ويكـون من أسباب سـرورهم وانبساطهم راحة إبلهم وحـصولها على المرعى المـناسب ويعرفون ذلـك بعد عودتها من المرعـى أي إذا روحت مساء.

وقد يحدث في بعض الأحيان عند العـزم علـى السفـر، أن يطـلب أحد الأشخـاص أن يرافق هـذه الخبره لأنه قاصد زيارة أحد أقربائه أو للبحث عن عمل هناك وتكون معه ناقة أو ناقتان ولا يستـطيع أن يؤجر راعيـاً، أو لا يعرف الطريق، أو لا يأنس لوحده فتقبل القافلة رفقته لهـم بشرط أن يساعدهم ويعـتبر نفـسه واحداً منـهم. وقد يكـون شاباً فيوصي عليه أبوه أو أمه أو يكون قريباً لصاحـب الإبل ويحب أن يدربه عـلى العمل بناءً على رغبة والديه.

وتصادف القوافل بعض المصاعب في رحلاتهـا، والأمثلة على ذلـك كثيرة؛

فنظراً لأن السير يبدأ مع الفجر قبل انبلاج الضوء فقد تفاجأ الإبل بخروج شيء عليها كذئب أو أي حيوان أو طير من تحت شجرة فتصاب الإبل بالجفال فتعدو بسرعة مما يؤدي إلى سقوط بعض الأحمال أو بعض الأمتعة فيضطر أصحابها إلى اللحاق بها وتهدئتها وإعادتها إلى الأحمال الساقطة وحملها.

وفي بعض الأحيان عندما يذهب الراعي بالإبل إلى المرعى بعد إنزال أحمالها، يحدث أن ينام الراعي عن مراقبة الإبل، فتتجه الإبل عادة إلى مهب الريح، خاصة الجنوب الغربي، فإذا استيقظ لم يجدها أو لم يجد بعضاً منها، فيبحث عنها حتى إذا يئس عاد إلى جماعته وأخبرهم الخبر، فيهبون مسرعين للبحث عنها وقد لا يجدونها إلا بعد يوم أو يومين فيضطرون للإقامة في مكانهم. وقد يفاجأ صاحب الإبل بدخول إبل مصابة بالجرب بين إبله والاحتكاك بها. والجرب معروف أنه من الأمراض المعدية. كما قد يفاجأ صاحب الإبل بجمل هائج من جمال البادية يدخل بين إبله وكلها إناث ومياسير أو مجاسير تريد الفحل، ولا يستطيعون رده خوفاً منه فيضرب بعضها، والجمَّال لا يرغب أن يلقح شيء من إبله لأنها إذا لقحت لا تقوى على الأحمال الثقيلة.

وقد يحدث أن يصاب أحد جمال القافلة بالتواء أو تمزق عضلي أو إصابة بليغة ناتجة عن سقوط في جرف مثلاً، مما يجعل البعير غير قادر على السير أو حمل الأثقال، أما في حالة إصابة البعير بكسر في إحدى قوائمه فليس له علاج ولا جبر. وإذا كانت الإصابة خفيفة نُقل حمله ووزع على الجمال الأخرى وترك عرواً أي عارياً من حمل. وقد يترك معه أحد الرعاة ويحدد له مكان، فيمشي به على مهل حتى يصل ولو متأخراً. أما إذا كانت الإصابة بليغة جداً ولا أمل في البُرء فيتم ذبحه وحمله والذهاب به إلى أقرب قرية لبيعه لحماً ويسمونه مشّنق أو وقيعه ويكون سعره رخيصاً، أو يؤخذ جزء من لحمه ويجري تقطيعه وحمسه، أو يعمل منه قفر أو وشيق أو قديد ويملح ويجفف، ويحملون معهم ما تبقى من لحمٍ أو قد يتركونه للسباع.

الرحالة داوتي بصحبة قافلة عنيزة

تشارلز داوتي Doughty Charles 1843-1926 من أشهر الرحالة الإنجليز الذين جابوا جزيرة العرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ويعد كتابه الترحال في الصحاري العربية Travels in Deserta Arabia من كتب الرحلات

الكلاسيكية المهمة. ومن المدن التي زارها في نجد مدينة عنيزة سنة ١٨٧٨م وقابل أميرها زامل كما عقد صداقة مع عبدالله البسام وعبدالله الخنيني. لكن أهل عنيزة ضاقوا ذرعا بهذا المسيحي الذي يجاهر بنصرانيته ويتحدى مشاعرهم. لذلك اضطر زامل أن يرحّله إلى بستان خارج البلد وطلب منه أن ينتظر هناك حتى يحين موعد مغادرة قافلة السمن التي تنطلق سنويا من عنيزة إلى مكة ليصحبها إلى آخر محطة لها قبيل وصولها إلى الحدود المقدسة ومن هناك يذهب إلى جدة. وقبل مغادرة القافلة حصل عبدالله البسام وعبدالله الخنيني على خطابات من الأمير زامل إلى أمير القافلة عبدالله، الذي كان من أسرة السليم، يوصيه بالعناية بهذا الرحالة. كما أوصى به ابن بسام ابنه عبدالرحمن الذي صحب القافلة وكذلك أوصى به عبدالله الخنيني قريبه سليمان، أحد رؤساء القافلة.

واستغرقت رحلة القافلة من عنيزة إلى مكة ١٧ يوما وصف داوتي وقائعها وأورد الكثير من التفاصيل حول هذه الرحلة، وعلى الرغم من صعوبة أسلوب داوتي وتعقيده إلا أننا سوف نترجم مقتطفات منها خاصة بسير القافلة وما تتعرض له من مشاق ومتاعب، لأن في ذلك تسجيلا إثنوغرافيا لسفر القوافل وحياة «عْقيل» في ذلك الزمن.

يكرس داوتي الفصل السادس عشر في الجزء الثاني من كتابه للحديث عن القافلة، لكنه أورد في نهاية الفصل الخامس عشر نبذا تمهد لما سيأتي، فذكر أن عنيزة وحلفاءها من مطير كانوا في حالة حرب مع قبيلة قحطان لكن الأمير زامل أجل المواجهة معهم حتى قدوم القافلة القادمة من الشمال، كما أجل مغادرة قافلة السمن إلى مكة إلى ما بعد المعركة (الإشارة هنا إلى كون دخنة بين قحطان من جهة وبين عنيزة وحلفائهم من مطير من جهة أخرى، وكانت مطير تطلب الثأر من قحطان بعد هزيمتهم على أيديهم في كون سلبة الدحملية). وبعد ذلك يقول داوتي في الفصل نفسه. «والآن بدأ الجماميل في عنيزة يستظهرون عدتهم ويهيؤونها، حيث أن قافلة السمن المتجهة إلى مكة سوف تنطلق قريبا. فقد أحضروا الزمل، وهي الإبل المعدة لحمل الأثقال، من مراتعها في البادية وأصبحنا نشاهدها كل يوم وهي تروم في مراعي النفود المحيطة بالبلد. وكان قد غادرت في تلك الأيام قافلة تحمل التمر والحنطة إلى المدينة». وقوله «ومن عادتهم في تلك البلاد أن جميع من يريدون اصطحاب القافلة يتواعدون مكانا

يجتمعون فيه خارج البلد، ومع حلول العشية التي تسبق يوم المغادرة يكون العدد قد اكتمل، وما تشرق شمس الغد إلا وقد بدأوا مسيرتهم».

ويضيف في الفصل السادس عشر أن الليل كان قد أظلم حينما وصلنا إلى محط القافلة، حيث حيا سليمان الجماميل الذين كانوا قد سبقونا إلى المكان برفقة أحمالهم. قادنا هؤلاء إلى المكان المخصص لنا في المخيم، حيث أن كل خبرة لها منزل تحط فيه وتنيخ إبلها أمامه. ها هي القهوة على النار في المكان المعد لنا ورأيت عكك السمن التي تؤول إلى سليمان (وكان عددها أربعا وعشرين أو ما يعادل طنا تقريبا) ملقاة على الأرض بانتظام: أربع من هذه العكك، التي تعادل الواحدة منها خمسة عشر صاعا (من أصواع القصيم)، تساوي حمل بعير، وقيمتها ثلاثون ريالا، ويأملون بالحصول على ستين في مكة. وقد مر بالمخيم البارحة جمع من أهالي عنيزة يودعون أصدقاءهم وإخوانهم المغادرين. هذا المكان الذي تتجمع فيه القافلة التي تقصد مكة يقع وسط نخيل خارج البلد اسمه الوهلان.

لقد علمت الآن ولأول مرة أن لا أحد في القافلة ذاهب إلى جدة! كلهم ذاهبون إلى مكة. وأوصى عبدالله الخنيني قريبه سليمان أن يهتم بأمري وكذلك ابن بسام ذلك الشخص الطيب أوصى بي ابنه عبدالرحمن وأكدا عليهما قبل الوصول إلى المحطة الأخيرة قبل مكة (سواء في وادي الليمون أو السيل) أن يبحثا عن «آدمي» يوصلني إلى جدة قبل الدخول في حدود الأماكن المقدسة. ولم يسبق للخنيني طاهر القلب أن حج من قبل، ولا يعرف الطريق ولم يخطر على باله الخالي ما سوف أتعرض له من مخاطر في نهاية هذه الرحلة.

كان معنا في قافلة السمن ١٧٠ بعيرا -تحمل حوالي ٣٠ طنا من السمن- ويصحبها سبعون رجلا منهم أربعون يعتلون مطاياهم، والبقية رعاة وجمالون. كنا متقسمين إلى خبر صغيرة، كل سيّد مع حاشيته وخدمه. وتحمل كل خبرة خيمة أو ظلة يظللون بها على رؤوسهم إذا حطوا الرحال ظهرا، ولتظلل السمن -الذي يذوب في العكك (وتسمى الواحدة منها جرم والجمع جروم) مع حرارة الشمس؛ ولا بد أن تطلى الجروم من الداخل بطبقة سميكة من الدبس. هذا السمن الذي يساوي أكثر من ٢٠٠٠ جنيه إسترليني في أسواق مكة يجمعه تجار عنيزة أثناء الربيع عن طريق المتاجرة مع البدو، ويحفظونه خلال هذه المدة في أحواض من الرخام.

وهناك أمير يعينه زامل على هذه القافلة الكبيرة، وهو من عائلة الأمير يتسلم ريالا عن كل بعير من إبل القافلة. وقد حصل الخنيني على خطاب من زامل يوصي فيه أمير القافلة أن يتعهدني بالرعاية ويحرص على سلامتي إذا تركت القافلة. وفي محطة العين جلسنا حول موقد النار نتحدث حتى أخذ منا التعب ثم استلقينا لننام هناك، على رمل النفود.

استيقظنا مع الفجر وكان لا يزال لدينا بعض الوقت لتناول القهوة. وكان الأمير وبعض تجار عنيزة الذين يقطنون مكة وينوون العودة إليها مع القافلة أمضوا الليل داخل المدينة، وسوف يلحقون بنا على نجائبهم العمانية. (الذلول من منطقة الخليج «عمان» قوية وضخمة لكنها أقل صبرا على الجوع والعطش من الأنواع التي دون مستواها. والعمانية التي تباع بستين أو سبعين ريالا في عنيزة لا تقل قيمتها عن ١٥٠ ريالا في موسم الحج في أسواق مكة حيث الطلب عليها كبير). ولما طلعت الشمس حمّلت القافلة وانطلقت. وبعد قليل وصلنا وادي الرمة حيث سرنا لمدة ساعتين قبل الظهر ثم نزلنا في شعيب الشبيبية ونصب أعيان القافلة شرعهم على شاكلة بيوت البدو بينما نصب الآخرون مظلات من السجاد البغدادي. ولم أر إلا واحدة أو اثنتين من الخيام المستديرة، بضاعة رخيصة يجلبونها من الساحل. والخبر الفقيرة لديها أغطية ممزقة منسوجة من الصوف سمعت أنهم كسبوها في حملتهم على قحطان. سليمان الخنيني جمال يمتلك الزمل، أما أحمال السمن الستة التي معه فإن قريبه عبدالله يشاركه فيها.

ربما كانت الساعة الثالثة قبل أن تتحرك القافلة وكانت الشمس المحرقة قد انحرفت باتجاه الغرب. وأعطى خادم الأمير الإشارة بالتحرك بأن صاح بأعلى صوته «الشيل!». وفي الحال تقوض المظلات ويؤتى بالجمال وتبرك للتحميل ويسارع الجمالون إلى تحميل العكك الثقيلة على ظهور الإبل قبل رحيل القافلة، وهذا عمل شاق يفوق طاقتهم، وبدأ ركّاب النجائب بالتحرك ومن ليس على أهبة الاستعداد سوف يفوته الركب. ويقف خادم الأمير أمام القافلة مثل الراعي يمد ذراعيه ليمنع المتقدمين من المسير حتى يلحق بهم مَن خلفهم، أو يجري هنا وهناك رافعا صوته على من يخالف أوامره. ويبدأون المسير، ولخوفهم من مجاهل الصحراء يتحركون مجتمعين.

وفي الليل لا ينصبون الخيام بل تفرش كل خبرة خيمتها ويجلسون عليها تحت نجوم السماء، وفي آخر الليل ينام عليها رئيس الخبرة. ويقوم الطباخ بجمع

الحطب، وآخر يقود الإبل إلى المرعى لتنال شيئا في نصف الساعة المتبقية قبل غروب الشمس. وكان مع سليمان ثلاثة من الجماميل أحدهم، وهو شخص معدم من أهالي عنيزة، كان طباخ الخبرة، وكان الآخر بدويا. وبعد ساعة وضعوا أمامنا العشاء (طبق حار من القمح المطبوخ). وبعد الأكل ارتشفنا القهوة، وجلسوا يتحدثون لبعض الوقت ويدخنون، ثم التحف كل منا عباءته ونمنا على الرمل، لنغفو فيما تبقى من ساعات قليلة قبل طلوع الشمس.

قبل الفجر بساعة سمعنا الصيحة «الشيل!»، ونهض القوم مسرعين وحرث الحراس نيرانهم الخامدة ونفخوا على الجمر ليرتفع لهبا، ورموا على النار مزيدا من أعواد الحطب لتحترق وتضيء لنا المكان. ولا تسمع إلا الرجال بأصواتهم الجشة وهم يجهّزون للرحيل. ويزدحم المكان بالإبل التي لا تسمع إلا رغائها وتدافعها. ولن تمر دقيقتان أو ثلاث إلا والجميع على أهبة الاستعداد. الراكبون يعتلون مطاياهم والمشاة يلبثون يتفحصون المكان في ضوء الشفق الباهت للتأكد من أنهم لم يتركوا شيئا خلفهم. يتحرك الجمع وتبدأ مسيرة يوم جديدة تستمر أثناء حرارة النهار الطويل حتى المساء. وبعد رحلة ثلاث ساعات في صحراء منبسطة وصلنا إلى الرس الذي لم يتردد أهله منذ جيلين في قطع نخيلهم ليعملوا منها مقاريس وصدوا ببسالة هجمات جيوش ابراهيم باشا. أرسل الأمير ذلولا إلى البلد ليستطلع الأخبار وعاد النجاب ليخبره بأن قافلة السمن التي تنطلق من الرس قد غادرت من قبل مع قافلة بريدة التي مرت بهم منذ يومين.

أحضر لي هذا اليوم أحد عملاء ابن بسام الخطاب الموجه من زامل إلى إبراهيم، أمير القافلة الشاب، بخصوصي. ورث إبراهيم هذا مهنته من أبيه -الذي كان حتى عهد قريب أمير قافلة مدينة عنيزة- وهو ابن اخت لزامل، إنه شاب في العشرين تبدو عليه أمارات الرجولة والنخوة. وقد دعاني مرة لتناول العشاء معه حينما ننزل في المساء. وشباب التجار العائدين إلى مكة حيث دكاكينهم هناك وبعض رؤساء الخبر يمتطي كل منهم ذلوله ويدفعها ليسير في ركب إبراهيم يتقدمون القافلة في مسيرتها، وبين الفينة والفينة يتوقفون ويوقدون نارا من الأعواد التي يجمعونها لعمل القهوة. وقد وجدت الركوب في مؤخرة القافلة، حيث السير بطيء، أريح لي.

إنها صبيحة اليوم الخامس ونحن ما زلنا نغذ السير في هذه البلاد المرتفعة، المليئة بالجبال، ومعظمها من حجر الغرانيت،

وأغلبها ذات أشكال غريبة، فصخور الغرانيت تنفرش على شكل صفائح بل أحيانا على شكل قبب مستديرة وعلى شكل حراشف. ومن علامات الطريق جبل بازلتي فيه شرخ عجيب يسمونه «درب الذيب». وقبل الظهر وقعنا على آثار غزو عظيم، وهو، كما يذكرون، ذلك الغزو الذي شنه مؤخرا ابن رشيد ضد عتيبة. وقبل الظهر سمعنا صوت النذير وتوقفت القافلة، يعتقد البعض أنهم طالعوا بدوًا. هب الجميع إلى أسلحتهم، ومعظمهم أطلق النار في الهواء ليفرغوا بنادقهم ويعمّروها بالذخيرة من جديد. أما الجماميل المرهقين من السير على أقدامهم فقد بدأو يقفزون ويرقصون ملوحين برماحهم في الهواء. واقترب الركبان بعضهم من بعض وصارت القافلة تسير مجتمعة وبانتظام. وسليمان الذي كان أول من استخرج بندقيته من خبائها، ركب واضعا بندقيته التي يشتعل فتيلها في حضنه، وكان يزمجر ويصر أسنانه من الغضب. وكانت هذه سيرة الباقين، واشتد حماس أهل القافلة الذين يطلبون من الله أن يمكنهم من إبادة أعدائهم الألداء، ذئاب الصحراء البشرية. وأرسل ابراهيم نفرا يعسون خبر الأعداء المتربصين، لكنهم عادوا بعد قليل ليؤكدوا أنه تبين لهم أن ما رأوه كان مجرد أشجار صحراوية. بعدها صاح خادم الأمير مناديا بمواصلة المسير.

وفي كل منزل ننزل فيه أرى مِذْكر في خيمة إبراهيم، فهو ينزل مع الأمير. هذا الشيخ البدوي رافقنا ليحمي القافلة في أي مواجهة تتعرض لها مع قبيلته عتيبة. كان هو ورفاقه الاثنين أو الثلاثة بمثابة العيون لنا في القافلة.

في المضحّى تترك الإبل لترعى، وتروم هذه البهائم المنهكة في الصحراء لكن أفواهها التي جفت من شدة الظمأ لا تستطيع أن تمضغ إلا ما تقتطفه خلال سيرها السريع في الصباح الباكر حيث لا يزال تأثير برودة الليل على الأرض. تنوء هذه البهائم الضخمة بأحمالها وتعرق وتكاد تمتنع لشدة عطشها عن الأكل حتى نهاية اليوم السابع عشر، حينما تحط عنها أحمالها في مكة. لكن معاناة هذه الحيوانات النجدية تتجدد في أجواء تهامة الراكدة، حيث تبقى هناك لترتاح بضعة أيام فقط، وهكذا تقاسي بدون راحة حتى تعود ثانية إلى عنيزة وقد أجهدها الإعياء. وقال لي جماميلنا الأقوياء بتأوه (من عادة العرب كلهم التشكي بشيء من اللامبالاة من متاعب العيش في هذه الحياة) إن عملهم في الرحلة متعب جدا. يركب أحدهم في

الصباح واثنان يمشيان وبعد الظهر أحدهم يمشي واثنان يركبان. ومسير قافلة القصيم لا يشبه مسير قافلة حجاج الشام التي تتحرك ببطء، فهم يحثون ركائبهم في حمارة القيظ من مورد لآخر. والموارد بعيدة بعضها عن بعض، ولا بد من الوصول إلى المورد التالي قبل اليوم الرابع من مغادرة المورد الأخير وإلا سقطت الإبل من الإعياء.

وبعد ثلاثة أيام بدأ ينفد صبر رجال القافلة وصاروا يزجرون مطاياهم بأصوات مشحونة تصدر من رجال على حافة اليأس. يحثون قلائصهم لتغذ سيرها ويلكشونها برؤوس رماحهم. ينهرونها ويندبونها ويدعون عليها بالويل والثبور «يامل الطير!»، «يامل الذبح!». ولو تلكأت لحظة لتقطف غصنا صاحوا بها «يامل الجوع!»، «يلعن الله آبو هالراس، أو هالقلب، أو هالحلق!». ويجب على الجمّال ألا يصرف نظره عن حمل بعيره لأنه من عادة البعير إذا جاء منطقة رملية أن يبرك ويتمرغ فيها ليسكن الحكة التي تهرش جلده، ولو حدث ذلك تحطم الحمل. ومع مرور كل يوم تزداد طباع أهل القافلة شراسة ويقل كلامهم ولا يتكلمون إلا بشق الأنفس. أما الجمالون الذين يحسون مرارة العطش في حلوقهم فإنهم لا يتلفظون إلا نزرا وبعبارات نابية، مثل «أنا ولد ابوي»، «أنا اخوك ياختي»، «أجل انا عبد ابوك (لأطيعك أو أخدمك)» وإذا احتد غضب أحدهم صاح بجاره «الله لا يبارك فيك ولا يجيب لك خير».

وفي مضحّانا بلغت درجة الحرارة ١٠٢ فهرنهايت (٣٩°) في الظل، وقدمنا موعد تحركنا واستعجلنا لندرك الماء الذي وصلنا إليه قبل الغروب بساعتين. هذه هي عفيف، مورد قديم عمقه عشرة أبواع وهو مطوي بالحجارة البازلتية الخشنة. وأسرع سليمان مع بقية أعيان القافلة وتقدموا إلى الماء بعدتهم، كل منهم يحاول أن يسبق الآخر إلى فوهة البئر ليحجز مكانا للرِّي. ولما وصلنا إليهم وجدناهم واقفين كل معه عدة السقي التي تتألف من عمود خشبي سميك يغرس في الأرض ويثبت بالحجارة وتثبت المحالة في رأسه المشقور، كتلك التي يستخدمها البدو في قلبانهم العميقة، وبدون هذه الطريقة لا يستطيعون جذب الماء. ويجذب الرشاء رجلان يسيران إلى الخلف ويقف الثالث على حافة البئر ليتلقى الدلو المملوءة إذا ارتفعت ويفرغها في حوض الإبل، والذي هو عبارة عن قطعة من الجلد أو السجاد تفرش على حفرة كانوا قد حفروها بالحصا والعصي وأيديهم العارية في الأرض الصلبة المغطاة بالزلط.

وسقيا هذا العدد الضخم من الإبل على قليب واحد يتطلب جهدا كبيرا من الرجال الذين يعملون بأقصى طاقتهم ولا تسمع إلا أهازيجهم التي يرددونها بصوت واحد مثل البدو.

تسلك القوافل التي تنطلق من القصيم إلى مكة طريقين؛ الدرب الغربي وموارده عديدة ومتقاربة، وهذا هو الطريق الذي سلكته من قبلنا قافلة بريدة والرس، ويسمى الدرب السلطاني. والدرب الأوسط الذي نحن عليه وتسلكه القوافل المسرعة وموارده متباعدة ومن يسلكه يسلم من الاحتكاك بالبدو لأنهم لا يقطنون على موارده في القيظ. ولا يجرؤ أصحاب القوافل على السقيا من الموارد التي يقطن عليها البدو الذين لا يؤمن جانبهم. في مثل هذه الحالة يأمر أهل القافلة البدو بالرحيل، فينصاعون لأوامر الحضر على مضض. أما إذا كان البدو القاطنين كثيرون ولا يستطيع الحضر ترحيلهم فإنهم يتناوبون معهم على الماء ويسقون بسرعة وأسلحتهم بأيديهم ثم يسوقون الإبل التي لم تأخذ كفايتها من الماء إلى المورد التالي. ومعظم الموارد في هذه الصحراء ماؤها مالح. وهناك طريق ثالث إلى الشرق منا يسمى درب وادي سبيع وموارده قليلة وصغيرة، ويسلكه المسافرون المستعجلون الذين يغذون السير مسرعين على ركائبهم النجيبة.

عفيف التي توقفنا فيها لنستريح أرض منخفضة تحيط بها الجبال البازلتية. ورأيت الأحجار البازلتية الخشنة على فوهة هذا البئر تغطيها قشور الكلس الأبيض وأحدثت فيها حبال البدو اللينة شقوقا غائرة. وتنمو هنا بكثرة أعشاب الضرم الطويلة المعترشة التي سبق لي رؤيتها على طريق الحج الشامي. وسيقت إبلنا التي لم تطعم شيئا إلى المرعى. واعتلى رفاقنا أصحاب مذكر من قبيلة عتيبة المرقب، وهو جبل بازلتي بالقرب منا، للمراقبة. وكانت حرارة الشمس شديدة على رؤوس رعاة الإبل، لأن حرارة الشمس التي يمكن للمسافر أن يتحملها وهو يتحرك في الهواء لا تطاق حتى بالنسبة للبدوي في حالة التوقف. واشتكى لي أحد «الملاحيق» من أشعة الشمس التي صار يغلي منها دماغه. وقبيل المساء رأينا إشارة الخطر تصدر من رفاقنا في المرقب! وأُحضرت الإبل بسرعة. لقد شاهد الرقباء زولاً يعتقدون أنه بدوي. ولكن تبين لهم بعد قليل أنهم أربعة من الصَّلَب راكبين حميرهم.

إذا وصل أمير القافلة إلى المنزل الذي يريد أن يتوقف فيه شد خطام ناقته وخبطها بعصاه على الرقبة وصوّت لها لتنيخ. وتبدأ

البهيمة المتعبة ترغو وتثني ركبتيها وتدور حول نفسها كما يفعل الكلب إذا هم بالربوض. ويتبع أعيان القافلة أميرهم وينزلون معه ويحرصون على أن يتخذ منزلهم شكلا دائريا، ثم يسوقون الإبل إلى حيث تبرك وينزلون أحمالها.

وإذا تقرح خف الراحلة حطوا عنها حملها وقسموه بين بقية الرواحل مما يضاعف من عنائها ويزيد آلامها. والجمالون النجديون يخشون من مثل هذه الحوادث، لذلك تجدهم حينما يتوقفون يعالجون قروح أخفاف إبلهم من بولها. ولطالما تساءلت إذا ما كان من الممكن صنع أحذية للإبل من الجلد! هناك بيت في معلقة لبيد يظهر لي أنه يشير إلى أن العرب الأوائل الأذكياء ربما استعملوا أحذية من هذا النوع. (يبدو أن داوتي لم يكن يعرف أن هذا أيضا ما كان يفعله الأواخر، خصوصا في الغزوات، بشهادة عدوان الهربيد الذي يقول في مدحه ساجر الرفدي «ساجر مسوّي للهجين النعال»).

قبيل الظهر وقعنا على آثار أدباش لبدو قادمين من جهة الحرة إلى حيث توجد آبار جيدة للسقيا في طريقنا. وفي المضحّى كان قد نال منا العطش، ولم نذق من الماء إلا تلك الجرعات المرة من ماء شرمة العكر ولن نصل إلى الماء إلا بعد حلول المساء أو صباح الغد. وجدت درجة الحرارة في الظل ١٠٧ درجة فهرنهايت (٤٢°) وبدأ يهب علينا السموم. وفي المقيل لا يتناول أصحاب القافلة إلا التمر وما تبقى من عشاء البارحة من الرز أو الثريد. ويأكل الأعيان والرعيان من قصعة واحدة ولكنهم اليوم لم يستطيعوا أكل شيء من شدة العطش. ذهبت إلى خيمة إبراهيم وابن بسام، وكل منهم يحمل عشر قرب من الماء، لأطلب فنجانا من القهوة أو من الماء. وأعطاني رجالهم رشفة من الماء لا غير؛ لأن هذه طريقة العرب في السفر. ورأيت أنه لا يزال في حوزتهم عدد من قرب الماء المليئة.

بعدما تركنا خلفنا جبال الاكموم وهكران تنبهت إلى حركة في مؤخرة القافلة ورأيت البعض على ركائبهم يتقدمون القافلة بسرعة خاطفة. ساروا مسرعين يبحثون عن بعض الثمائل التي لا تبعد كثيرا عن الطريق. ولما وصلوا إليها قفز كل منهم في حفرة الماء ليملأ قربته، ووقف في الماء الوحل الذي غمره حتى منتصف قامته. وسارع كل من الناس العطشى إلى الماء وشرب ملء إنائه، ولم يتنبهوا إلى أن الماء لم يكن نظيفا إلا بعد شربهم منه.

وفي الليل أرسل إبراهيم بعض الركبان ليجسوا لنا الماء أمامنا، والذي كنا نأمل في الوصول إليه أمس، ويخبروننا إن كان البدو

يقطنون عليه. طلعت علينا الشمس ونحن ما زلنا نستريح في هذا المكان الجميل. وذهب البعض يحملون بنادقهم متسللين بين الأشجار الشوكية الخضراء لاصطياد الحمام الذي يرتاد الموارد ولكن يندر رؤيته يطير في الخلاء. إلا أن الأمير بمشورة من مذكر أرسل لهم بأن يتوقفوا عن الرمي حتى لا يلفتوا إلينا انتباه الأعداء. وبعد طلوع الشمس بنصف ساعة رأينا روادنا يعودون حاملين معهم الأخبار بأنهم لم يلقوا إلا بدوا قليلين على الماء من عتيبة وأنهم تحدثوا مع واحد منهم وجدوه في الصحراء فدعاهم ليسقيهم من حليب نياقه. بقينا في مكاننا ونصبنا خيامنا، ونحروا فاطرا وزعوها على الخبر التي اشترت من لحمها. وقد استاقوا مع القافلة ثلاثا أو أربعا من هذه الجزر، وبهذه الطريقة يتذوق رجال القافلة المتعبون اللحم كل بضعة أيام.

انطلقت القافلة ظهرا وامتدت أمامنا السبخة المستوية التي تصل إلى سيف الحرة، وإلى اليسار منا يمتد أفق الصحراء. ومررنا ما بين جبل هكران المنخفض وأطراف الحرة. ومع غروب الشمس دخلت القافلة جانبا مجوفا على حافة الحرة صخوره البركانية ثقيلة وبازلتية. هنا مورد من عدة آبار؛ الويه، أو مويه الشعيب، أو أمواه هكران، وهو مورد رئيسي من موارد العرب.

وجدنا البدو كانوا قد غادروا المكان ومع ذلك فإننا نزلنا وقت الغسق قبل الوصول إلى الماء بمسافة ليست بالبعيدة، لأن المكان في هذه الأشهر يمتلئ باللصوص. وأرسلت كل خبرة رجلا إلى الآبار ليملأ قربهم من مائها ليشربوا. رتب أصحاب القافلة منزلهم على شكل دائرة ملمومة خوفا من مفاجآت الصحراء. وأشعلت النيران للطبخ وعمل القهوة. كانت الليالي مظلمة فاستعدوا للحراسة. ويظل في كل خبرة شخص متيقظ للحراسة، ويتناوب الحراسة ثلاثة أشخاص حتى مطلع الفجر. وذكر لي سليمان أنهم في قوافل الحج السنوية التي تحمل البضائع الكثيرة والفضة يقومون بالحراسة الليلية طوال هذا الطريق الصحراوي الطويل.

في الصباح الباكر ساق القصمان إبلهم إلى المورد ليسقوها حاملين أسلحتهم بأيديهم وكان عملهم سريعا نظرا لكثرة الآبار. وغادرت القافلة بعد طلوع الشمس بساعتين، وكان هذا اليوم الثالث عشر من مغادرتنا عنيزة. ولم نقابل أحدا من البشر منذ تركنا القصيم، ولكننا الآن نرى قليلا من البدو يقودون إبلهم إلى الماء ليسقوها. ولم يتغير منظر السهوب من حولنا، تتناثر قمم من صخور المرو، أكوام من البياض اللامع نراها في هذه الأرض. مررنا بدار،

أو منزل قديم مهجور من منازل البدو، وآبار ماؤها مالح. الجال المرتفع من حرة كشب يتجه معنا دائما حيثما نسير، وشاهدت فيه عبر الصحراء أشجار الأكاسيا الخضراء (الطلح) وتلال عالية من الرمال المتحركة أراها عبر الصحراء. وبدت لنا التلال البركانية التي لا نكاد نراها في ضوء الشمس التي لفها النشاص. (هذه اللابات العظيمة غمرت الصخور البلوتونية، على خلاف حرات خيبر والعويرض التي يغطيها الحجر الرملي). ولا تزال السبخات تمتد بين طريق القافلة والحرة. هذا هو ما نشاهده من تضاريس بشعة في الطريق من نجد إلى مكة. يبلغ ارتفاع هذه القفار حوالي ٤٢٠٠ قدم.

توقفنا في الظهيرة واستعجلنا في نصب الخيام لتقينا حرارة الشمس. واتجه نحونا قادم من الخلاء بدوي راكب ذلوله. أخبرنا هذا الرجل الودود من عتيبة أن قافلة بريدة على ماء مران، هناك أسفل من الحرة. وعصف علينا هبوب السموم من الغرب أثناء سيرنا بعد الظهر. وأنخنا للمبيت مع غروب الشمس. إلا أن بعض رجال القافلة، لما سمعوا أن هناك آباراً غير بعيدة منا، ركبوا ليملأوا القرب بالماء، لكنهم عادوا بدون ماء لأنهم وجدوه، كما قالوا لنا، مالحا وطعمه كبريتي.

أثناء مسيرنا في المساء رأينا قطعان البدو من الأغنام يرعاها أطفال عراة. كان أولئك البدو الصغار نحيلي الأجسام وبشرتهم بنية بلون الجوز من لهيب الشمس المحرقة. شاهدنا إبلهم أمامنا واقترب منا الرعاة ليسألونا عن الأخبار. وجاءنا خيال يمتطي فرسه العاري من السرج ودفعه بجرأة في وسطنا. وأصبحنا نرى بيوتهم السود. هؤلاء هم عرب الشيابين من عتيبة. كانت الشمس تنحدر نحو المغيب وابتعدنا قليلا عن قطين البدو ونزلنا. وجاءنا بعض نساء البدو يسألن أهل القافلة إذا ما كان لديهم قماش للبيع. لكن القصمان قالوا لي إن قصدهن التجسس على مخيمنا وإذا ما كان هناك شيء يمكن سرقته بالليل. لاحظت عيونهن حادة البصر بشرتي البيضاء وسألن «من هذا؟ من هذا الغريب بينكم؟».

وفي الغد واصلنا مسيرنا وسط قطعان البدو، وكلها هنا وبرها أبيض. في هذه الصحراء المدارية رأيت بعض النباتات المنعزلة من صبار المفصليات المزهرة «الغلاثي» الذي يستخدمونه لعلاج الإبل، يدهن به البدو أنوف إبلهم المريضة. والأرض خليط من الرمل والزلط البلوري. وقبل الظهر بساعتين وصلنا إلى عرق آخر من عروق اللابة البازلتية وصادفنا إبلا لهؤلاء الشيابين صادرة من مورد الشعراء

وكانت تبرك غير بعيد منا. هذه الإبل العتيبية لونها بني وقليل منها لونها يميل إلى السواد وكلها صغيرة الحجم. كان الرعاة شباب جريئون ويتكلمون بطلاقة. وحينما مررت راكبا أمام بيت منعزل رأيت داخله امرأة مع ابنها فسلمت عليها وردت علي بطلاقة «مرحبا، مرحبا». حينما اقتربنا من منازل البدو بادر رفاقنا في القافلة، كعادتهم في الحذر من البدو، باستخراج بنادقهم الطويلة من أخبيتها وأشعلوا الفتائل وظلوا راكبين وبنادقهم على رُكبهم.

وقابلنا شاب بدوي رشيق جاء ليسقي إبله وكم كان وسيما وجه ذلك الشاب وهو يرتدي رداءه المكي الأزرق، وهذا اللون في نظر أهل الشمال لا يلبسه إلا النساء. وسالت صفائره الحالكة السواد متناثرة على أكتافه. وصاح راعي إبلنا العنزي، الذي بحكم أنه بدوي يكره كل البدو الذين لا ينتمون لقبيلته، «هيه ياولد، أقول يالربع، أبك هذا رجال والا مَرَه؟» وتميَّز الشاب المسكين غيظا ونظر إلينا شزرا بعينيه الجميلتين وكاد أن ينفجر بالبكاء.

أمضى أصحاب القافلة ليلتهم هذه متسلحين. وكانت إغفاءتنا تقطعها صيحات التحذير وطلقات البنادق التي لم تتوقف حتى الصباح، وأمضينا الليل ونحن عرضة للخطر من هذه الطلقات التي تصدر من مخيمنا. والبدوي الذي يقبضون عليه وهو يتلصص يحضرونه إلى خيمة الأمير، وقالوا لي إن عقوبته الضرب حتى الموت. ولا يكاد يفوت يوم دون أن يُفْقَد شيء من القافلة، ومن المحتمل أنه تُرك على الأرض أثناء ركوبنا في الظلام قبل انبلاج الصبح. وإذا وصلنا إلى منزلنا التالي قام صاحب الحاجة المفقودة يصيح بين يديه المضمومتين إلى فمه يعلن عن فقدانه هذا الشيء أو ذاك ويطلب من أي شخص عثر عليه أن يخاف الله ويعيده.

جاء إلينا بعض البدو في الصباح وحالما رأوني سألوا بإلحاح من أكون، وسألهم أصحاب القافلة عن أسعار السمن في مكة. وحينما غادرنا، بعد أن أسقينا الإبل مرة أخرى، جاء بدوي واندس في القافلة، وكانت ملابسه رثة مثل غيره من البدو ولكنه كان وسيما مقارنة بالحالة المزرية لهؤلاء الحضر الكادحين. لكن راعي إبلنا العنزي بلسانه السليط لعن أباه الذي خلّفه وأمره أن يبتعد عنا! لكن العتيبي استل نصف سيفه من غمده مهددا وابتسم ابتسامة البدو المهذبة الساخرة، فهو لا يخاف من الحضر وسط ديرته.